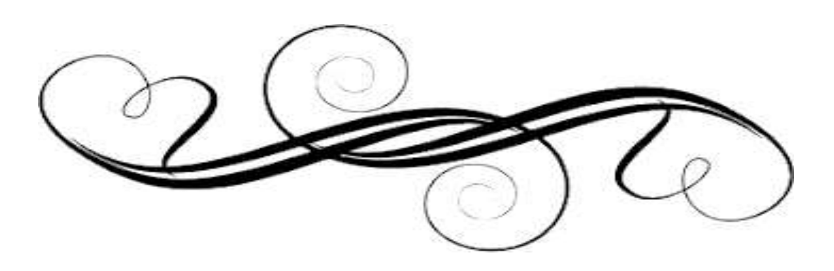
نوستالجيا الواقع والأوهام

دراسة تاريخية



الدكتور محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

ديــوان العــرب للنشــر والتــوزيع

عنوان الكتاب: نوستالجيا الواقع والأوهام

اسم المـؤلف: د. محمد فتحي عبد العال

التصنيف الأدبي: دراسة تاريخية

رقـم الإيــــــداع: 25915 / 2022

الترقيــم الدولي: 7 - 271 - 998 - 977 – 978



التدقيــق اللغوي: د. هبة مارديــن

تــصـميـم الغلاف: شيماء منـيـر

التنسيق الداخلي: محمد وجــيـــه

رقــــم الطـبـعـة: الطبعة الأولـى

المديــــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع ـ مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390

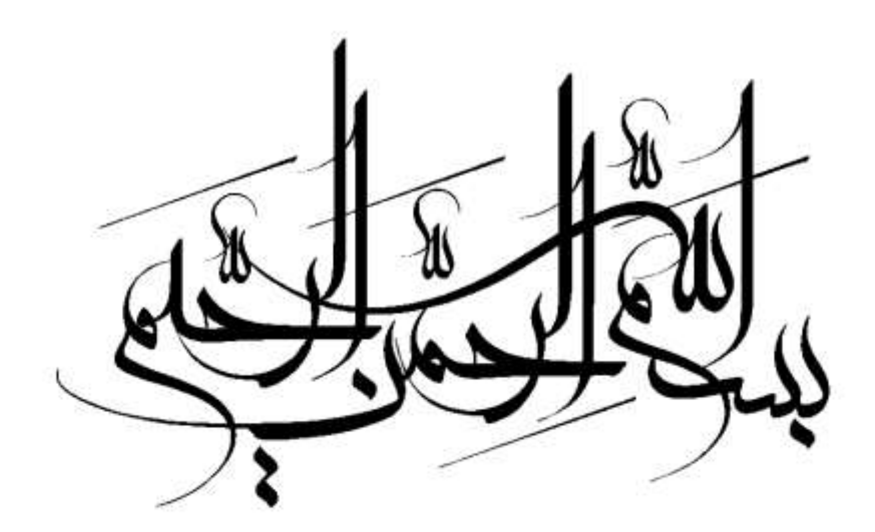
بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

نوستالجيا الواقع والأوهام

دراسة تاريخية

د . محمد فتحي عبد العال

ديوان العرب للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى روح والدتي الغالية السيدة ناريمان عبد الفتاح أحمد زردق.
وإلى روح أخي العزيز الأستاذ أحمد فتحي عبد العال.
وقد شاء الله أن يكون موعد رحيلهما في نفس اليوم من شعبان لعامين متتاليين أهدي هذا الكتاب متمنياً أن يكون صدقة جارية على روحيهما.
عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عنْه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له).

د. محمد فتحي عبد العال

****

مقدمة

هذا الكتاب هو استمرار لما بدأته في كتابي صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر حول تصحيح حالة المثالية المتعلقة بالماضي ورجالاته وفي سبيل المزيد من تسليط الضوء على بعض التجارب الكتابية التربوية والأخلاقية التي لم تأخذ حقها وظلت حبيسة بين جنبات تلال من الكتب صفراء اللون، خطها رجال ظنوا أنهم وضعوا عصارة أفكارهم وأحلامهم فيها أملاً أن تنير الطريق لمجتمعاتهم ولمن بعدهم فإذا هي مع الوقت تحتضنها أيادي الأهمال، وينهال عليها ركام من أتربة الضياع.

حصاد أعوام من البحث والتنقيب بين الكتب القديمة والصحف العتيقة أضعها بين يدي القراء، متمنياً أن تكون معيناً لهم في فهم التاريخ كطريق للحاضر ونواة للمستقبل.

والله من وراء القصد
د. محمد فتحي عبد العال

****



"لا يفقه شعب ما سر مستقبله قبل أن يتنبه شعور الاحترام فيه لمآتي أجداده ويدرك مآثر أبطاله فهنا وهنا فقط يستطيع أن يبلغ ذروة الرقي"

الملك فؤاد الأول

اليد الحديدية

مقدمة

تناولت في (كتابي على هامش التاريخ والأدب) قصة إسماعيل باشا صدقي وملامح السياسي البرجماتي، لكن جوانب هذه الشخصية الثرية لا يتسع لها كتاب واحد، ولا أكون متجاوزاً إذا قلت أن قراءة هذه الشخصية عن كثب تعطي ملامح دقيقة عن طريقة فهم الكثير من الساسة المصريين القدامى للشعب المصري، وتفسير أساليب تعاملهم معه؛ لهذا فقد خصصت هذا الجزء للحديث عن جانب مهم من شخصية صدقي وهو ما يمكن تسميته "الديكتاتور الواقعي أو صاحب البصيرة".

الديكتاتورية الواقعية:

"السلطة المطلقة مفسدة مطلقة" قالها السياسي البريطاني (لورد آكتن) في القرن التاسع عشر، ولكنها لا تصلح وأن تتخذ قاعدة عامة فمن الممكن أن يكون صاحب السلطة فظاً، ولكنه يريد أن يحمل أمته على الصواب من وجهة نظره حتى وإن خالف الإجماع وخسر التأييد الشعبي، وصدقي نموذج حرفيّ لذلك فهو رجل صريح للغاية في علاقته بأمته وفي علاقته بوطنه وبينهما فجوة كبيرة في عقلية الرجل فهو يؤمن بقضايا وطنه وحلولها بشكل واقعي، بعيداً عن الشعارات لكن في الوقت ذاته لا يؤمن بأهلية

أمته للديموقراطية ومباشرة حكم ذاتها بعيداً عن سلطة أبوية سياسية تحدد لها الطريق ثم تدفعها له دفعاً.

في حديث له بصحيفة الأهرام مع (كامل الشناوي) وفي معرض إجابته عن سؤال حول اختلافه مع آراء الآخرين من النخب السياسية قال: "إنّ غيره يدرسون المسائل مثله، وينتهون في الرأي إلى ما انتهى إليه، لكن الفرق بينه وبينهم أنه حينما يتكلم يعبر عما يجول في رأسه، بينما الآخرون يعبرون عما في رؤوس الجماهير"!

والجماهير ـ كما صرّح لمصطفى أمين ـ كالطفل الذي يريد أن يلقي بنفسه من النافذة أو كالذي يحب "بائع الدندرمة الملوثة" فحينما تمنعه لإنقاذ حياته من منطلق المسؤولية كـأب أو طبيب قد يبكي أو يغضب ولكن حينما يشب عن الطوق سيعلم أن ما فعلته كان من أجله وسيبكي أباه حينما لا يجده جواره!

رجل يمحو الماضي:

كان صدقي يصف الشعب المصري بأنه شعب كل حكومة ومن هذه النظرة كان يرى أن باستطاعته إعادة تشكيل الحاضر وفق رؤيته دون أن يضع في الاعتبار الشعب المصري وأطيافه المختلفة، لذلك ليس من المستغرب أن يكون تصريحه حينما أوكلت له الوزارة كما جاء في مذكراته: "إذا تم اختياري لهذا المركز الخطير، فستكون سياستي أن أمحو الماضي بما له وما

عليه، وأن أنظّم الحياة النيابية تنظيماً جديداً، يتفق ورأيي في الدستور واستقرار الحكم".

والماضي الذي يعنيه صدقي واضح بكل تأكيد، فهو ذلك الميراث الليبرالي الكبير الذي خلفته ثورة عام **1919** في النفوس وظلت الأمة تحصد ثمراته في مقاومتها للاستعمار وفي وضع دستور **1923**.

ولقد وصلت كراهيته للماضي الليبرالي إلى حد محو ذكرى مفجره ألا وهو الزعيم سعد زغلول، فقد بُنِيَ لسعد زغلول بعد وفاته ضريحٌ (دارت معركة حول هذا إقامة هذا الضريح على طراز إسلامي أو فرعوني، وانتصر فيه أصحاب الطراز الفرعوني) لتنقل رفاته إليه من الإمام الشافعي، لكن صدقي كان معارضاً أن يكون الضريح لشخص واحد؛ فعرقل نقل رفات الزعيم الجليل إلى ضريحه، واستبدل ذلك بنقل المومياوات الملكية الفرعونية من متحف بولاق للضريح!

ولم تتوقف كراهية صدقي عند حدود الليبرالية المصرية، بل امتدت إلى الجهاد في الجارة الغربية (ليبيا)، ذلك أن رفيقه في الكفاح الوفدي (حمد الباسل باشا) عميد قبيلة الرماح بالفيوم والتي تمتد فروعها لليبيا والحجاز أعد في منزله سرادقاً في ذكرى إعدام المجاهد الليبي (عمر المختار) في نوفمبر **1931**، فهدم البوليس السرادق وحاصروا منزل الباسل ومنعوا

المدعوين من الوصول إليه، ووضع رجال البوليس أسلاكاً شائكة لمنع مرور السيارات بأمر صدقي الذي رأى في الاحتفال بالبطولة جرماً سياسياً!

أما ترسيخ السلطة القائمة والمتمثلة في شخص الملك فؤاد فكانت على أولوياته، فقد أدار صدقي مسألة تنازل الخديوي المعزول (عباس حلمي الثاني) عن حقه في العرش لصالح الملك فؤاد عام **1931** في مقابل "أن تدفع الحكومة له سنويّاً مبلغ ثلاثين ألف جنيه لا تنسحب على الماضي، ولا يُصرَفُ منها شيءٌ لأحدٍ من ورثته بعد الوفاة".

كان عزل عباس حلمي الثاني عام **1914** وكان وقتها في زيارة لتركيا، وتعرض لمحاولة اغتيال على يد (محمود مظفر بن محمد مظفر باشا)، أخرت عودته لمصر لتعذر وسائل السفر مع اندلاع الحرب العالمية الأولى فوجدت بريطانيا الفرصة سانحة لعزله.

اللافت أن العزل جاء بعد فترة ليست طويلة من حادثة دنشواي الشهيرة والذي تحدثنا عنها في كتاب (مرآة التاريخ)، وكيف عوقب الأهالي كما عوقبت القرية نفسها بسحب استقلالها، فلم يعد لها عمدة وألحقت بقرية (أبي كاس) المجاورة كما عوقبت الحكومة في شخص ملاحظ نقطة الشهداء (مراد أفندي محرم) الذي اتهم بالتقاعس عن الإبلاغ بوصول الضابط الإنجليزي المصاب والمتوفى بعد ذلك، حيث تم فصله وفصل خفراء قرية دنشواي ولم يبق سوى معاقبة الخديوي ذاته.

لكن يتضح من تعقيب الخديوي عباس حلمي الثاني، وقد أضحى سابقاً في كتاب له بالإنجليزية على مفاوضات محمد محمود باشا هندرسون **1929** وأعادت مجلة (الكشكول) نشره مرة أخرى إبان مفاوضات مصطفى باشا النحاس -هندرسون **1936**، أنه استوعب الدرس فيما يخص علاقته بإنجلترا وفي تورطه في إعادة فتح السودان بأموال وأرواح مصرية غالية، فقد أدرك أن بريطانيا قوة عظمى لا يستهان بها، خرجت من الحرب محتفظة بوحدتها وعملتها الجنيه الإسترليني الثابت وسط العاصفة، وأنها إمبراطورية تسعى للسلام والوفاق والسلم والتوازن لذا فالتحالف معها أفضل من التصادم وهو أكثر نفعاً لمصر، فهو يضمن وقايتها من أي اعتداء خارجي كما يوطد دعائم مركزها فتحتل مقعداً بعصبة الأمم (منظمة قبل الأمم المتحدة)، وأن بقاء قوات بريطانية لحماية القناة أفضل من بناء أسطول ريثما يتم بناء جيش مصري قوي بخبرات عسكرية بريطانية، ولكن على غرار الجيش السويسري وهو الجيش الوحيد الذي لا يعرف جنوده استباحة أراضي الغير. وفي مسألة السودان كان يرى أن اتفاقية السودان التي وقعت في عهده ودفع ثمنها بطرس باشا غالي رئيس النظار حياته أفضل ما تم التوصل إليه، وأن بقاء الشراكة بين مصر وبريطانيا في حكم السودان أجدى من الدفع بجيش مصري وسط أتون الصراعات بالسودان يفضي به إلى الموت وزيادة عدد الموظفين المصريين أسوة بالإنجليز

أفضل السبل. كما يؤكد أن مصر لا تضمر نية استعمارية تجاه السودان، بل تدعو لتمدنها ووجود هيئات نيابية بها والتعاون معها، وأنّ مسائل مثل الري وحقوق مصر المائية قد استوفيت بالاتفاقية أما الزراعة فتحتاج إلى سياسة زراعية تضمن النفع للطرفين مع جعل الأولوية في الهجرة للسودان للمصريين بحكم التزايد السكاني في مصر مقارنة بسكان السودان. الطريف هو حديثه عن موقف الأقليات من المسألة المصرية فأشاد بالأقباط وموقفهم من ثورة **1919** وكذلك السوريين فيما أسف لموقف الأرمن الذين احتضنتهم مصر بعد المذبحة الأرمينية في تركيا، لكنهم لم يُظهروا أيّ اهتمامٍ بالقضية المصرية، وكذلك الحال بالنسبة للإسرائيليين الذين استفادوا من الامتيازات الأجنبية، وحماية دول كثيرة لهم أملاً أن يتغير الحال مع إلغاء الامتيازات.

التصادم مع المثقفين:

بادل الشعب المصري صدقي بكراهية شديدة؛ فأطلقوا عليه (عدو الشعب)، وهو وصف ظل يلاحقه في كافة الأوساط الشعبية والثقافية.

بطبيعة الحال السمات الشخصية التي تمتع بها صدقي تجعله يضيق ذرعاً بالثقافة، وهو الرجل ذو العقلية الاقتصادية التي تزن الأمور بميزان المنفعة، لذلك فقد أحاط نفسه بالمنافقين والذين يصدون عنه أي هجوم من معارضيه عبر التشويه والترهيب.

لذا كان وضع المثقفين في عهده في غاية السوء؛ فعوقب (عباس محمود العقاد) بالسجن تسعة أشهر بتهمة (العيب في الذات الملكية) عام **1930**، حيث علق في البرلمان وكان عضواً به على رفض قانون محاسبة الوزراء بقوله: "وليعلم الجميع أن هذا المجلس مستعد لأن يسحق أكبر رأس في البلاد في سبيل صيانة الدستور وحمايته"، مما اعتبر مساساً بشخص الملك فؤاد وعبثاً حاول محاميه (مكرم عبيد) بأن ما قصده العقاد بأكبر رأس هو الحكومة وليس الملك، لكن اليد الصارمة لصدقي كانت الأعنف...

علاقة إسماعيل صدقي بـ"طه حسين" شابها الكثير من التوتر منذ مجيئه عميداً عام **1930** خلفاً للفرنسي "ميشو" المنتهية مدته، وقيل: إنّ السبب في ذلك رفض طه حسين لمنح الدكتوراه الفخرية لعدد من السياسيين لا صلة لهم بالأدب رشحهم صدقي وقيل: لرفضه منحها لصدقي نفسه، وقيل: إن السبب رفض طه حسين أن يكون رئيساً لتحرير جريدة الشعب، لسان حال حزب الشعب الذي أنشأه صدقي باشا. ثمة رواية أخرى أجدها الأقرب للمنطق وهي أن الملك فؤاد كان في زيارة لكلية الآداب واستمع لمحاضرة لأستاذ في التاريخ عن "تطور الدستور الإنجليزي" وأن الواقعة أتت في وقت كان الملك وصدقي قد عطلا الدستور فيه، مما أثار حفيظة فؤاد وفطن أن الأمر مقصود ومدبر وأن المسؤولية تقع على عاتق عميد كلية الآداب طه حسين.. وأياً كان السبب في الخصومة فكان صدقي لا يعرف سوى الانتقام

والإجهاز على خصومه في ضراوة، ولمّا كان طه حسين وقتها عميد كلية الآداب؛ فقد تقرر نقله بأمر حلمي عيسى باشا، وزير المعارف العمومية والمعروف بوزير التقاليد (لإغلاقه معهد التمثيل في ذلك الوقت) ليعمل مستشارًا في ديوان وزارة المعارف العمومية، ولمّا رفض طه حسين تم فصله من الحكومة، فقامت التظاهرات الطلابية لأجله ومن وقتها لقب بعميد الأدب العربي.

لكن صدقي استطاع أن يعوض مكان طه حسين بالجامعة المصرية بشخصية ذات ثقل كبير وهو الأستاذ العلامة (أحمد الإسكندري) أستاذ الإنشاء والأدب العربي بدار العلوم؛ فتم نقله أستاذاً للأدب العربي بالجامعة وهو من مؤسسي مجمع اللغة العربية في عهد صدقي، كما اشترك مع الأستاذين حفني ناصف، ومصطفى عناني في لجنة اعتماد الرسم العثماني للمصحف الشريف ووضع قواعد الوقف في المصحف الشريف وهو أول من أدخل تدريس فقه اللغة في دار العلوم.

والحقيقة أنني أجد أن اختيار صدقي كان لرجل مناسب في مكانه المناسب ولو كنت مكانه لفعلت هذا بضمير مستريح، فلقد قدم طه حسين للأدب اليوناني القديم والاستشراق الغربي أكثر مما قدم للأدب العربي.

الكاتب الكبير (محمد التابعي) صاحب المدرسة الصحفية الرائدة لم يسلم من سجون صدقي، فقد حكم عليه بالسجن أربعة أشهر في أعقاب حادث

الحصاينة عام **1933**، وخلاصة الحادث أن الحكومة والبوليس عطلا وابور طحن الغلال ومضرب الأرز المملوك للشيخ الوفدي (طلبة صقر) فاختصمت الحكومة أمام القضاء، وحينما جاءت قوة من البوليس للتأكد أن الوابور والمضرب معطلين حدث تصادم بين أهل الشيخ والبوليس سقط على إثره ضحايا من الطرفين؛ فأرسل البوليس تعزيزات كبيرة للقبض على الأهالي للانتصار لهيبة الدولة في حادثة مشابهة لحادثة مأمور البداري التي تحدثنا عنها في كتاب (على هامش التاريخ والأدب).. جاء حكم القضاء ببطلان إلغاء رخصة الماكينة والوابور، وأعقب ذلك مطالبات بالإفراج عن الأهالي ومحاكمة مأمور المركز فعلق التابعي على صفحات (روز اليوسف) ساخراً "إن وزير الحقانية أحمد باشا على قرأ تقرير النائب العام، ثم هزّ رأسه وقال: نفرج عن الأهالي معلش، أما أن نحاكم المأمور بتهمة التزوير فلا، وهز الوزير رأسه هزة اهتز معها قانون العقوبات، وأسبل القانون رمشه، وصرف النظر عن الموضوع" مما أغضب صدقي.

كما نال الصحفي (محمد توفيق دياب) صاحب صحيفة (الجهاد) نصيبه من السجن في عهد صدقي، حينما نُشِرَ تسريبٌ لخطابات من صدقي لأقسام البوليس لتزوير أصوات الانتخابات لصالح حزبه (الشعب) ولوصفه أحد النواب بأكحل العينين! كما خاض دياب حملة شرسة ضد صدقي بسبب سد جبل الأولياء وسنأتي على تفصيله في الجزء الأخير من هذه الدراسة.

الشاعر (محمود أبو الوفا) صاحب القصيدة الشهيرة (عندما يأتي المساء) التي غناها (محمد عبد الوهاب) والذي امتحنه الله في صباه ببتر ساقه اليسرى فكان صابراً محتسباً، وحينما سعى بعض المثقفين لدى صدقي لتركيب ساق صناعية له على نفقة الدولة في فرنسا في مقابل أبيات قليلة يلقيها في مدح صدقي، فرفض الشاعر أن يطلب حقاً له بنفاق وقيل أن صدقي استجاب لعلاجه، وقيل أيضاً: إن هدى شعراوي هي التي تحملت التكاليف.

كما قيل: إن الموسيقار رياض السنباطي رفض أن يحي حفلاً في حضرة صدقي مما جعله موضعاً لهجوم الآلة الإعلامية المعاضدة لصدقي.

لا يذكر لنا التاريخ موقفاً كان فيه صدقي معاضداً لقضية ثقافية ومنتصراً لها سوى استقالته على أثر أزمة كتابه (الإسلام وأصول الحكم) حيث استقال وزير الحقانية (العدل) (عبد العزيز باشا فهمي) وفي رواية أخرى أقيل بأمر من الملك فؤاد الذي أزعجه تباطؤ الأخير في اتخاذ إجراء عقابي تجاه مؤلف الكتاب الشيخ (علي عبد الرازق) فكانت استقالة صدقي تعضيداً لموقف صديقه الوزير ولحزب الأحرار الدستوريين الذي يتزعمه الوزير وليس بسبب الكتاب بطبيعة الحال.

أما علاقة صدقي بالشيوعيين، فكانت شديدة القسوة فقد عزز قانون العقوبات عام **1946**، بعدة مواد أضيفت خصيصاً للقضاء على الشيوعية

مستلهماً إياها من قانون فاشي أصدره موسوليني الديكتاتور الإيطالي عام **1930**، ونجح في تمريرها في غيبة البرلمان كما شن حملة اعتقالات على الشيوعيين أطلق عليها قضية الشيوعية الكبرى، وضمت مشايخ شيوعيين منهم (أبو الحسن الغنيمي) لكتابيه (الشيوعية في الإسلام) و(دورنا في الكفاح الوطني)، فضلاً عن عدد من أدباء اليسار المصري ومنهم: سلامة موسى ومحمد مندور، كما أغلق عدداً من الصحف منها "الفجر الجديد" و"الجبهة" و"أم درمان" و"الضمير" و"الوفد المصري".

حتى الأمراء لم يسلموا من تشدد صدقي ومنهم النبيل (عباس حليم) نصير الحركات العمالية وزعيم العمال، والذي حبسه الملك فؤاد وحرمه من لقب "نبيل" نتيجة لهذه الميول الاشتراكية. ربما سمعت كثيراً عن هذا الاسم وقصته فصفحات الملكية لا تكف عن الثناء عليه.

تعلم من التاريخ يا سيدي أن تأخذ حذرك من الحمية الزائدة تجاه مثالية فلان أو علّان، فكلنا بشر وأعلم أن الغضب يفضح الشخص مهما أبدى من مثالية.. ما مناسبة كل هذا التقديم؟! سأقول لك يحكي عباس خضر في كتابه (خطى مشيناها) أن مجلة (الكشكول) نشرت رسماً كاريكاتيرياً لعباس حليم "في وضع لم يعجبه" فذهب لإدارة المجلة "وبيده السوط" واقتحم مكتب رئيس التحرير (سليمان فوزي) وراح يضربه بالسوط حتى فر هارباً من بين يديه، وأن صحف الوفد نشرت هذا الحدث ساخرة بصاحب

الكشكول الذي كان دائم السخرية من زعماء الوفد بالكاريكاتير والشعر الحلمنتيشي!! السؤال لو صحت الرواية: هل نيل الحقوق بالسوط أم بالقانون؟!

الطريف أن مواقف صدقي السلبية ضد الشعب دفعت مفكريه لتشكيل أول جمعية لحقوق الإنسان بمصر، وتتلخص دوافعهم أن أول قانون للجنسية المصرية صدر في مايو **1926**، في عهد أحمد زيور باشا وكان ذا طابعٍ ليبرالي عالٍ، لكن إسماعيل صدقي شاء أن يكبله بعد ذلك بسنوات بمواد تسحب الجنسية من المنضمين للمعسكر الشيوعي بالخارج من المصريين وقد خرج من عباءة هذه التعديلات المعيبة أول جمعية لحقوق الإنسان أسسها الليبرالي المصري (محمود عزمي).

كما كتبت منيرة ثابت الرائدة النسائية عن وضع الحريات في عهده بمجلتها الأمل قائلة: (لقد سلطت وزارة صدقي عليكم أقصى ما يمكن أن يتصوره العقل البشري من ضروب الاعتداء على حقوق الإنسان، حتى أنها بدلت في الكشوف ما شاء لها الهوى أن تبدل، وحاولت أن تعين المندوبين تعييناً؛ فوضعت في كل كشف واحد من عمالها وتأمر كل تجمع انتخابي أن ينتخبوا عميلها وإلا أعملت فيهم تعذيبًا وانتقامًا) كما انتقدت لاحقاً مفاوضات صدقي – بيفن.

ولا يمكننا أن نغلق مسألة الحريات دون أن نتحدث عن أبيات لشاعر النيل (حافظ إبراهيم) في صدقي والتي تعكس مبلغ الكراهية لسياساته يقول فيها:

"وَدَعا عَلَيكَ اللَهَ في مِحرابِهِ
الشَيخُ وَالقِسّيسُ وَالحاخامُ
لاهُمَّ أَحيِ ضَميرَهُ لِيَذوقَها
غُصَصاً وَتَنسِفَ نَفسَهُ الآلامُ"

رجل يرى المستقبل

تحدثنا في كتاب (على هامش التاريخ والأدب) عن موقف صدقي من حرب فلسطين بشكل مختصر، لكنّنا في هذا الجزء سنعرض بشكل تفصيلي موقف صدقي من المسألة الصهيونية بأكملها.

في كتابي (مرآة التاريخ) تحدثتُ عن الفتاة اليهودية (نظلة ليفي)، والتي ذهبت إلى الجامع الأزهر لتخطب في الناس في ثورة عام **1919**، وهو جزء من تجانس المجتمع المصري القائم على انصهار الطوائف الثلاث من المسيحين والمسلمين واليهود، فلا تستغرب عزيزي القارئ من قيام (محمد بدر) الشاب المسلم و"أحد خريجي جامعتي أدنبرج وبن ومؤلف تاريخ الفلسفة في المنطق وما بعد الطبيعة وحقيقة الإسلام وفهرست الكتب المخطوطة في اللغات العربية والفارسية والأوردية بمكتبة جامعة أدنبرج "

عام **1926** من وضع كتاب (الكنز في قواعد اللغة العبرية) لينال استحسان الحاخام الأكبر وتقرر وزارة المعارف وقتها تدريسه بالقسم العالي بدار العلوم وغيرها من المشاهد التي تشهد بعبقرية الأرض المصرية في ذلك الوقت والتي يضيق المقام برصدها جميعاً.

لذا فصداقة صدقي بيوسف أصلان قطاوي رئيس الطائفة اليهودية في مصر (من مؤسسي جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية ووزير سابق للمالية والمواصلات وعضو مجلس النواب والشيوخ)، ليس بالضرورة مبعثه علاقة خاصة ربطت بين زوجته الحسناء وصدقي فقطاوي كان له رصيد كبير كاقتصادي متميز من قبل، فقد شارك في تأسيس بنك مصر وله باع كبير في صناعة السكر.. لقد تناولنا مغامرات صدقي من قبل، لكن لا نستطيع أن نرتكن إليها دائماً؛ خاصة وأنّ الأمر يتعلق باتجاهات الرجل وقراراته كرجل دولة واقتصاد في المقام الأول بعيداً عن الفراش!!

كما أن مشاركته في المعرض الصهيوني في تل أبيب عام **1933** والذي ولَّدَ سخطاً فلسطينياً عليه لا يعني تأييده لإسرائيل، فالمسألة الصهيونية كانت في تقديره خلافاً داخلياً ولا خطر على مصر إذا قامت إسرائيل للتفاوت في التعداد السكاني والإمكانيات، علاوة على نظرته لليهود باعتبارهم أهل صناعة وتجارة لا ينبغي تعليمهم الحرب، كما قال في تصريح له عقب حرب فلسطين والتي كان معارضاً لها وتطرقنا لذلك من قبل قال فيه: "أقولها

صراحة والأيام بيننا، فمصر قد تدخل في اتفاق مع إسرائيل" وإنّ الأفضل التخلي عن الشعارات البراقة والمزايدات واستغلال رغبة إسرائيل في الصلح بشروط وفق المصلحة المصرية أفضل من الخضوع لحكم الأقوياء!

وذهب في تصوراته المستقبلية لأبعد من ذلك حينما تحدث أنّ النحاس نفسه هو من سيدخل في هذا الاتفاق والمثير أنّ ما قاله تحقق، ولكن بعد سنوات طويلة في عهد الرئيس أنور السادات بمعاهدة السلام عام **1979**...

فيما يخص قضية السودان وهي قضية محورية في ذلك الوقت كان صدقي في مفاوضاته التي عرفت بصدقي بيفن عام **1946** واقعياً أيضاً؛ فالسودان قد يقرر مصير استقلاله وإدارة شؤونه بشكل مستقل عن مصر عاجلاً كان أم آجلاً، لكن لم يكن صدقي في هذا الوقت هو صدقي العشرينات الذي تنازل عن جغبوب، فالعمر قد تقدم به والزمن تغير وأرهقه المرض وإرغام الرأي العام على أمر كهذا مستحيل خاصة، وأنه يصطدم أيضاً بالقصر الملكي لذلك فقد ضمن معاهدته التي لم ترَ النور بأن استقلال السودان سيكون عبر اتفاق خاص بين مصر والسودان، وليس عبر معاهدة مع الجانب البريطاني وهو ما أفشل المعاهدة التي سعى لإنجاحها بكل السبل ورهن ما بقي من مستقبله السياسي بها وراهن عليها حتى النهاية...

كان لصدقي أيادٍ بيضاء في حركة التنمية، فشهد عصره بناء كوبري الخديوي إسماعيل "قصر النيل" **1933**، والطريف هو مهاجمة صحف المعارضة له

وقتها لأن الكوبري واسع جدّاً ولا يمكن أنْ تملَأَه السيارات! وكذلك إنشاء مجلس مكافحة الفقر والجهل والمرض، ولكن تتجلى عبقرية صدقي وقدرته على استشراف المستقبل حينما بنى سد (جبل الأولياء) على النيل الأبيض لتخزين المياه والاستفادة منها مشروع سبق السد العالي بسنوات طويلة واستغرق إنشاؤه من عام **1933** إلى عام **1937**، وقد لاقى المشروع معارضة شديدة من خصوم صدقي؛ لأن السد بني بتكلفة كبيرة وصلت إلى **2.5** مليون جنيه مصري، إضافة لكون السودان تحت الحكم الإنجليزي لكن صدقي لم تفُته هذه المسألة، فقد اشترط بقاء السد تحت الإدارة المصرية، وأن تكون مياهه كلها لاستخدام مصر وحدها، وظل الخزان يؤدي دوره كخط إمدادٍ ثانٍ للمياه في مصر، ولكن بعد اكتمال بناء السد العالي تم تسليم السد للسودان في السبعينيات، ويكفينا أن نعلم أن هذا السد هو جزء من استراتيجية السودان لحمايتها من تداعيات سد النهضة الأثيوبي.

****

مراجع الفصل

1-كتاب إسماعيل باشا صدقي للدكتور محمد محمد الجوادي.

2-كتاب مذكراتي لإسماعيل صدقي باشا.

رحلة في عقل سلطان مملوكي ومحطات من البحث عن الشرعية في العهود القديمة

مقدمة

مسألة لا تبدو هينة؛ فالوقوف على أعتاب دهاليز التاريخ المملوكي أمر يستدعي الاقتراب من صانع القرار، وصانع القرار في هذه العهود لا يكتب مذكراته ولا حتى يملي تصريحاته أو تعقيباته عن حوادث هامة، ربما لا يكون الوقت كافياً ليفعل هذا في خضم مسؤوليات جسام وربما ملكات اللغة وأدوات الكتابة ومهاراتها كانت مفقودة لديهم مع أصولهم الغربية أو ربما كان لإيمان جل هؤلاء السلاطين أن الشعب المصري لا حق له في المعرفة وهو بطبيعة الحال خارج دائرة صناعة القرار والتي في كل الأحوال تصدر ارتجالية تبعاً للأهواء وتغير الخاطر والويل، ثم الويل لمن يعكر صفو السلطان ويغير خاطره!

هذا الوضع جعل مصادر التاريخ المملوكي محدودة ومكررة أولها وأشهرها كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) لزين العابدين محمد بن أحمد المعروف بابن إياس الحنفي، وهو معدود على المماليك فجده الأمير إياس الفخر الظاهري من مماليك الظاهر سيف الدين برقوق، وعمل دواداراً في عهد الناصر فرج بن برقوق وهو ما يجعل البعض يتشككون في رواياته عن

الاحتلال العثماني لمصر بحكم ولائه للمماليك، ويظهر ذلك جلياً في اتهام الجنود العثمانيين بالإفطار في نهار رمضان جهاراً إضافة إلى تسرب الحكايات الشعبية لتاريخه ومن أشهرها قصة تسليم طومان باي لسليم الأول جراء خيانة شيخ العرب حسن بن مرعي علاوة على نفاقه لخاير بيك حينما أصبح حاكماً لمصر على الرغم من خيانته للسلطان المملوكي قنصوة الغوري وتسببه في هزيمته في مرج دابق وزحف السلطان العثماني سليم الأول لمصر قائلاً في مدحه: "مصر أضحت في سرور عندما * قد تولى للنيابة خير بيك".

لكن هذا لا يمنع موضوعيته في بعض المواضع وانتقاده للممارسات الظالمة للسلاطين المماليك ومنهم قنصوة الغوري موضوع حلقتنا، فمثلاً: يتحدث عن تكية أنشأها قايتباي فلما تسلطن الغوري أمر ببناء مصطبة بالحوش بها عرش ذهبي فخم ليباشر منها المحاكمات فلما اعتلى الحكم طومان باي هدم المصطبة وأعاد التكية لسيرتها الأولى البسيطة وهنا ينشد ابن إياس قائلاً: "قد عادت التكية للحكم.. وانهدمت مصطبة الظلم".

المصدر الثاني للتاريخ المملوكي (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) لأبي المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشبقاوي الظاهري وهو مملوكيٌّ أيضاً، كما يتضح من اسمه وكان أبوه من كبار أمراء المماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق وابنه

الناصر فرج بن برقوق وقد نال هذا الكتاب عناية السلطان سليم الأول فاستحسنه وحمله معه.

المصدر الثالث: (آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني) لابن زنبل الرمال وهو مصدر مشكوك في صحته فمؤلفه صنعته رمّالاً ومفسراً للأحلام فضلاً عن امتلائه بكثير من الانفرادات كمقتل الغوري مثلاً ومصير جثمانه بعد مقتله فهو يسوق حواراً بين الأمير علان والأمير أقباي الطويل انتهى فيه لقطع رأس السلطان المقتول ورميه في جب خشية أن يسبقهم إليه جنود العثمانيين ويطوفون به بلاد الروم فصارت جثة بلا رأس!!

أسفار ضخمة لا ننكر مقدار الجهد المبذول فيها ولكن تبقى أسئلة حائرة من نقل هذه الروايات؟ وهل تقيد أصحاب هذه الكتب بصنعة التأريخ ومهمة المؤرخ، فتأكدوا من صحة الروايات؟ وصدق رواتها؟ وتحروا منطقية الرواية واستقامتها مع الواقع؟ أم كانوا مجرد ناقلين عن شهود لم يروا شيئاً؟ الحقيقة أننا لا نعلم مدى الشفافية والتجرد والإجادة لدى هؤلاء الكتاب القدامى، ولكننا ككتاب حديثين لا سبيل لدينا سوى أن ننقل من هذه الكتب، ثم نطلق العنان للاستنتاج لما وراء سطور هذه القصص وأحياناً نختلق روابط تنسج من هذه القصص مادة تاريخية يقبلها المنطلق ويستسيغها العقل.

لكن شاء السلطان المملوكي قنصوه الغوري أن يضعنا ولأول مرة على مقربة من مجلس سلطان مملوكي وأن نشاهد ونسمع ما يجري: ما هي المسائل التي تشغله؟ وما هي الأمور التي يغضب لها؟ ومَنْ جلساؤه وطبائعهم ومبلغ علمهم ودرجة ثقافتهم؟

كل هذا أتيح للباحثين عبر كتابي: "نفائس المجالس السّلطانية في حقائق الأسرار القرآنية" و"الكوكب الدّري في مسائل الغوري".

قصة الكتابين:

كان السلطان الغوري مولعاً بالأدب والشعر، لذلك فقد أمر بترجمة الشّاهنامة إلى اللّغة التركية، وهي ملحمة شعرية فارسية ضخمة تبلغ نحو ستين ألف بيت، وضعها أبو قاسم الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي ليسجل فيها تاريخ الفرس منذ العهود الأسطورية القديمة وحتى الفتح الإسلامي. وقد أوكل هذه المهمة إلى رجل عربي الأصل شريف النَّسب اسمه (حسين بن حسن بن محمد الحسيني الآمدي) وقد أنجز هذه المهمة في عشر سنين ونظراً لتوطد علاقته بالغوري وقربه من مجالسه، فقرر أن يسجل ما بها من نفائس ودرر ثمينة!! وقد أُسبِغَ على الغوري أوصاف وألقاب تصلح أن تكون معيناً لكتاب كيف تصبح مستبداً دون معلم؟! على شاكلة "السلطان الأعظم، الخليفة المعظم، عمدة سلاطين الآفاق، وقدوة الملوك بالاستحقاق، مظهر أسرار جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ سلطان الأقاليم السبع بالطول والعرض، أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، الملك الأشرف

أبي النصر، عزيز مصر، قانصوه الغوري"، كما بالغ في وصف وتصوير ما يقوم به السلطان من عمارة مدعياً أنها تفوق الأهرامات عظمة: "ومن عجائب دولته عمارات كثيرة، في مدة يسيرة، عمل في ست سنين، الذي لا يمكن مثله في ستين والمشهور بين الجمهور أن شداد بن عاد بنى الأهرام التي لم يخلق مثلها في البلاد في مدة ست سنين؛ لا شك لو جمع هذه العمارات يجيء بقدر الأهرام مع بعد عماراته الشريفة عن الجبل، وتعب الحمل بالجمل، وكان بناء الأهرام في وسط الجبل".

ولا يخفى علينا طبيعة المشايخ في هذه المجالس وهم شيوخ السلاطين بلغة عصرنا ومشايخ الفترة استلهاماً من وصف لعبد الرحمن الجبرتي أطلقه على المشايخ المعاضدين لمحمد علي باشا ضد عمر مكرم.

وقد حقق الكتابين الأستاذ (عبد الوهاب عزام) في الأربعينيات من القرن الماضي، ويضم الكتابان مجالس الغوري تحت مسمى "روضات" في الكتاب الأول ومسائل تخص التفسير والحديث والتاريخ وبعض الفوازير والألغاز في الكتاب الثاني ولا أخفي على القارئ مدى الملل الذي كانت تحفل به هذه المجالس والتفاهة التي تنضح من موضوعاتها في بعض المسائل إلا أن مسألة هامة حملها الكتاب وكانت تشغل الغوري وجلساءَه، وهي مشروعية الحكم!

تاريخ مشروعية الحكم عبر العهود المملوكية والعثمانية وأسرة محمد علي باشا

في الروضة الثامنة في مجالس جمادى الأولى طرح سؤالاً: "ما معنى الجركس؟ الجواب: قال مولانا السلطان: أصل الجركس هو صاركس؛ جاء ببني غسان في خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه وأسلموا وحجوا، وكان سلطانهم في الطواف، وقدم فقير عليه فدفعه فوقع ومات الفقير؛ فجاء جماعة الفقير وطلبوا من القاتل الدم؛ فحكم عمر بقتل القاتل أو يرضيهم وما رضوا منه إلا بقتله. قال السلطان: أمهلوني ثلاثة أيام. وفي ذلك الليل هرب وجاء عند هرقل القيصر وتنصر فبعثهم هرقل إلى بلاد الدشت، والجركس من نسلهم".
فهل ما قاله الغوري صحيحاً، أم أنه بحث عن مشروعية الحكم؟! يمكن رصد بداية الاهتمام بهذه المسألة بعدما جاء الملك الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، بالشيخ العز بن عبد السلام من سجن بيت المقدس إلى مصر، وأحسن استقباله، وقربه منه وقلده القضاء فضلاً عن الخطابة في مسجد عمرو بن العاص.
لكن سرعان ما اصطدم الشيخ الذي عرف عنه أنه لا يخشى في الحق لومة لائم مع الصالح أيوب نفسه حيث تكشف له اتساع نفوذ المماليك وسيطرتهم على مناصب الولايات العامة والإمارة والمناصب الرفيعة بالدولة مما يجافي صحيح الدين من عدم جواز ولايتهم على الأحرار لكونهم في

حكم الرقيق والعبيد، وأبلغ ذلك للصالح أيوب فحاول إثناءه عن المضي في هذه الفتوى، فخلع الشيخ نفسه من القضاء وهدد بالرحيل إلى إحدى القرى التماساً للعزلة، فخرج الشعب يؤازر الشيخ في فتواه. فبلغ ذلك الملك الصالح، فأسرع للشيخ يسترضيه فأبى العودة حتى تنفذ فتواه ولكن لم يشأ أن يصعب الأمر على نجم الدين فقال له: "إن أردت أن يتولى هؤلاء الأمراء مناصبهم فلابد أن يباعوا أولاً، ثم يعتقهم الذي يشتريهم، ولما كان ثمن هؤلاء الأمراء قد دفع قبل ذلك من بيت مال المسلمين، فلابد أن يرد الثمن إلى بيت مال المسلمين!" وعرف الشيخ من بعدها بـ«بائع الأمراء!».

كان المشهد مهيناً للمماليك وربما خلق لدى أمرائهم رغبة في عدم تكرار هذا الأمر حتى بعد أن استتب الحكم بالكامل لهم فكان السعي للبحث عن الشرعية، فوجد المماليك ضالتهم في إحياء الخلافة العباسية التي سقطت في بغداد على أيدي التتار، فأعاد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، الخلافة العباسية إلى مصر، حيث بويع الخليفة أبو القاسم المستنصر بالله الثاني بن الظاهر بأمر الله العباسي في القاهرة سنة **659** هـ. لكنها ظلت سلطة اسمية فقط وكثيراً ما كان يدب الخلاف بين السلاطين المماليك والخلفاء فيتم وضعهم تحت الإقامة الجبرية أو استبدالهم.

ظل المنشأ الأجنبي وطرق الجلب إلى مصر تطارد السلاطين وحول طرق جلب المماليك لمصر، فقد استعرضت ذلك في كتابي (تأملات بين العلم

والدين والحضارة): "كان الصعود السريع لأمراء المماليك في المناصب في مصر دافعاً قوياً للشباب في آسيا وأوروبا إلى الدخول في الاسترقاق طوعاً من أجل الحضور لمصر ـوالتي صارت قبلة للطامحين والحالمين بالحكم من شتى البقاعـ والشعبُ المصري المالك الحقيقي للأرض غائبٌ تماماً يعاني الظلم والقهر والاستبداد على يد حكامه الأجانب من كل صوب في نفس الوقت الذي يصفهم في أدبياته بالورع والعظمة.

كان الحلم نفسه في الصعود في المناصب يراود بعض المصريين للدرجة التي جعلتهم يسيرون للرق سيراً من أجل أن يعيشوا بكرامة في بلادهم، فقد استطاع عسكر المماليك أن يقتلوا داخل المصريين أي إحساس بالكرامة أو أي شعور بالقيمة داخل بلادهم وفي عصر قايتباي نجح أحد المصريين في السفر وأوقع نفسه في الاسترقاق ليؤتى به إلى مصر على أنه مملوك تركي عن طريق تاجر من حلب، وكادت الحيلة أن تنطلي على السلطان قايتباي إلا أن تسرع المصري كشف حيلته بسرعة، فبمجرد أن ترقى المصري وتم عتقه فقد أسرع يختال في بدلته العسكرية طالباً للزواج! فقبض عليه السلطان وأثناء تعذيبه راح يستغيث: "في عرضك يا ستي نفيسه!" فاكتشف السلطان أن مملوكه ليس تركياً، بل زقاقي أي من عامة الشعب المسكين الساكن بالأزقة والحواري لاستغاثته بالسيدة نفيسة كعادة عامة الشعب... هل هناك إهدارٌ للكرامة أكثر من سعي الحر أن يصبح عبداً حتى يعيش بشرف وعزة في وطنه؟".

علاوة على أن مقاومة بعض القبائل العربية والأشراف منهم لسيطرة المماليك على مقاليد الحكم بالمخالفة للشرع ظلت ناراً تتأجج بين الحين والحين ومنها الحرب بين المعز أيبك والأمير حصن الدين ثعلب أمير الجعافرة الأشراف والذي تجمعت حوله قبائل الصعيد وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم غير أن المماليك تمكنوا من هزيمتهم بقيادة فارس الدين أقطاي الجمدار النجمي الصالحي، ونصبت لهم المشانق في أنحاء مصر وقبض على حصن الدين وقيل تم إعدامه بعد ذلك في عهد بيبرس بعد استدراجه. كما لم يخل الأمر من مهادنات كما حدث بين الظاهر بيبرس (اتخذ بيبرس الأسود شعاراً لحكمه ذلك أن اسمه يعني الفهد وقد سبقه لذلك ملك إنجلترا هنري الأول)، وبعض أهل البيت وخاصة المتصوفة منهم وهو ما يظهر جلياً في تغاضيه عن تسمية السيد الشريف الحسن (أخو السيد البدوي صاحب المقام الشهير) بالسلطان بدر الدين والذي أعقبه ابنه السلطان الحسين أو السلطان أبو العلا صاحب المنطقة الشهيرة.

ثم لا تلبث الحرب أن تستعر مجدداً كما حدث بين علي بيك الكبير والأمير همام بن يوسف أو شيخ العرب همام في صعيد مصر، والتي انتهت بهروب همام لأسنا بعد خيانته من جانب ابن عمه إسماعيل فيما خلفه ولده درويش والذي دخل في طاعة علي بيك، ويتلخص الصراع بين علي بيك الكبير (اسمه الحقيقي علي بيك بلاط، وكان ابن قسيس رومي أرثوذكسي من قرية أماسيا في الأناضول)، وبين شيخ العرب همام أنه وبمجرد تسلم

علي بيك منصب المشيخة حاول الانفراد بالحكم، ولم يكن ذلك ممكناً إلا بالتخلص من شخصيات ثلاثة هم: عبد الرحمن كتخدا وحسين بيك كشكش وصالح بيك القاسمي حاكم جرجا وحليفه شيخ العرب همام أما الأول فنفاه للحجاز مع أتباعه والثاني والثالث سعي للوقيعة بينهما وكسر شوكتهما بقتال بعضهما بعضاً، فعزل صالح بيك عن جرجا وأمر بنفيه وعين بدلاً منه حسين بيك ووجه حسين بيك بقواته لإجلائه، فاستبسل صالح بيك في القتال بمعاونة حليفه شيخ العرب همام، ثم نجحت جهود المصالحة بين حسين بيك وصالح بيك مما أغضب علي بيك، فأمر بنفي حسين بيك هو الآخر؛ فأسرع حسين بيك من فوره بقواته وسيطر على القاهرة وفر علي بيك إلى الشام. حاول علي بيك العودة للحكم مرة أخرى بالتحالف مع صالح بيك والذي رفض فتوجه مباشرة للتفاوض مع شيخ العرب همام وإقناعه وإقناع حليفه صالح بيك بمساعدته مقابل حكم همام للصعيد مدى الحياة وحكم صالح بيك لجرجا كذلك مدى الحياة.

وللأسف ابتلع همام الطعم ونجح علي بيك بمعاونته ومعاونة صالح بيك في العودة مرة أخرى لمنصبه وتوطيد مركزه الداخلي أما توطيد مركزه الخارجي فكان بشق عصا الطاعة للباب العالي والحصول على الدعم الروسي والاستقلال بمصر، وهو ما كان فيما فشل في الحصول على دعم من البندقية. سرعان ما نكث علي بيك وعوده قالباً ظهر المجن لشيخ العرب همام بعدما نجح في اغتيال حليفه صالح بيك غيلة ووجه قواته بقيادة محمد بيك أبو

الدهب لتقليص نفوذ همام في الصعيد لخشيته من تصاعد قوته وموالاته المحتملة للعثمانيين، فاستجاب همام وقبل بالتنازل عن بعض أملاكه لتفادي المواجهة لكن علي بيك صمم على استئصال شوكة همام وطالبه بتسليم فلول قوات صالح بك من الأمراء المماليك فاعتبر همام ذلك إعلاناً للحرب التي لا مفر منها ودارت معركة حاسمة بين الجانبين عند أسيوط حشد فيها علي بيك كل جيشه مدعوماً بأسلحة حديثة من الروس فيما كانت قوات همام معتمدة على فلول المماليك في القتال فانهزم همام وفر بما بقي من قواته إلى مركز حكمه في فرشوط محاولاً ترتيب الصفوف ليعيد الكرة من جديد لكن محمد بيك أبو الدهب والذي أسرع إلى فرشوط في أثر همام وقواته كان الأسبق في تفتيت ما بقي من أتباعه عبر استخدام سلاح الخيانة واستمالة الشيخ إسماعيل أبو عبد الله ابن عم همام مع وعد باستخلافه مكان همام.

تخلى الجميع عن شيخ العرب همام ففر إلى أسنا وهناك مات كمداً.

حرصاً على استتباب الأمر في الصعيد عين أبو الدهب (درويش) الابن الأكبر لهمام على حكم فرشوط ولكن تحت إمرة علي بيك الكبير فقبض على أتباع أبيه ومشى سيرة مغايرة لسيرة أبيه في العدل وحماية الفلاحين من ظلم المماليك. وتشاء الأقدار أن يذوق علي بيك من نفس الكأس التي ذاق منها شيخ العرب مع نجاح الدولة العثمانية في استمالة محمد بيك أبو الدهب ضد سيده وأستاذه علي بيك الكبير.

لذا لا غرو أن تستمر المسألة تؤرق السلاطين المماليك كثيراً ومنهم الغوري فكيف تقنع شعباً وأنت أجنبي أنك من لحمته وأن شروط الخلافة تنطبق عليك! بالطبع المماليك ليسوا بحاجة للشعب ليكون جزءاً من استراتيجية الدفاع فهم بعيدون عن الجندية، ولكن ظلوا يخشون من أن يصبح الشعب حصان طروادة في وقت من الأوقات وأن عليهم تأمين الجبهة الشعبية من الثورات المحتملة خاصة وأنهم كانوا يلهبون ظهور الشعب بالضرائب وهو ما يتضح من كتاب نفائس المجالس السّلطانية حيث ذهب الغوري إلى أنّ نسب المماليك الجراكسة يعود إلى الغساسنة أي العرب كما أشرنا من قبل، وبتفحص نسب الملك الظاهر برقوق وهو أول سلاطين المماليك الجراكسة (سمي برقوق لنتوء في عينيه) ينتهي نسبه إلى كسا بن عكرمة بن عمرو بن ود العامري بن الحرث بن مزيد بن قصي بن كلاب وكسا هذا هو بيت القصيد في مسألة نسبة الجراكسة للعرب فتدعي قصة يغلب عليها الأسطورية والمبالغة أن أحد عظماء الشركس ويدعى كسا (وقيل هو آخر ملوك الغساسنة النصارى جبلة بن الأيهم وكان قد أسلم) ضرب مسلماً فقيراً وهشّم أنفه أثناء طواف الحج لكونه وطئ إزاره؛ فشكاه الأخير للفاروق عمر بن الخطاب فأمر بالقصاص منه، ففر كسا في الليل إلى بلاد الشام، ثم إلى الشمال إلى بلاد القفقاس (موطن جبال القوقاز)، ولأنه سرى كسا ليلاً، فقد جاءت التسمية بالشركسية!

اللافت أنه على الرغم من هذا المسار الذي لا ينقطع في بحث المماليك عن الشرعية إلا أنهم بقوا حتى النهاية بمعزل عن الاختلاط والزواج بمصريات من أهل البلاد التي يحكموها ليظلوا محافظين على تميزهم ونقاء جنسهم وكونهم أمة جندية حاكمة للبلاد وحسب يخوضون معارك متواصلة تشغلهم عن التفكير في تكوين أسر من الأساس خاصة وأنّ ولاء المملوك كان للسيد الذي جلبه أكثر من فكرة الذرية. القليل من المماليك من صار له ذرية واندمج "بعد جيل أو جيلين في المصريين" بحسب إجابة يعقوب أرتين باشا على أسئلة السير وليم موير صاحب (كتاب تاريخ دولة المماليك في مصر) في سبتمبر **1895** وأضاف الباشا: إنّ هذه الفئة كان أولادهم يسمون "المولدين" ويضرب مثالين عنهم بعبد الرحمن الكخيا مولى علي بيك وبمحمود سامي البارودي باشا، والذي يدعي أنه من "سلالة السلطان الغوري" لكن الحقيقة أنه "حفيد مملوك لعلي بيك عهد إليه بالترسانة التي أنشأها في بولاق لخبرته بصناعة البارود" لذلك سمي بالبارودي وأنّ هذه الفئة أيضاً ابتعدت عن الارتباط بالمصريين.

حينما أمسك العثمانيون بزمام الأمور في مصر جعلوا من أنفسهم الشرعية ذاتها، وذلك عبر فكرة الخلافة الجامعة مع ميل للمهادنات في بداية حكمهم فعينوا خاير بيك المملوكي ليهدئوا من تمرد المماليك، وقد أطلق الأخير سراح العديد من المماليك الجراكسة ومنحهم الأمان، لكنه وجه

بعصيان في المنطقة الشرقية قاده عبد الدايم بن بقر والذي استغل ضعف المماليك ومقتل العديد منهم، وانشغال العثمانيين بتتبع فلول المماليك وأعلن التمرد في هذه المنطقة. حاول خاير بيك استمالته وعين والده الشيخ أحمد بن بقر حاكماً على الشرقية، لكن ذلك لم يضع حداً للسلب والنهب في المنطقة.

بوفاة خاير بيك عادت مصر لحظيرة الباب العالي بالكلية، وتم تعيين مصطفى باشا زوج أخت السلطان سليمان القانوني حاكماً على مصر، وقد اختلف في صفاته ما بين نعته بالعنجهي والمتكبر وما بين وصفه بالمتدين ونصير العلم والعلماء ومقربهم، لكن كان بالنسبة للمماليك وآل عثماني من قبل سلطان عثماني صغير السن لا ينبغي أن يظهروا له الولاء، فهم أهل فروسية وكر وفر ولولا الأسلحة النارية لما غلبهم العثمانيون وحكموا مصر.. كان العصيان الأول بقيادة قانصوه بيك أمير آخور سرعان ما قضى عليه ليتلوه عصيان جديد من قبل إينال السيفي كاشف الغربية وجانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم واللذين شقا عصا الطاعة للعثمانيين وحشدا لمواجهتهم قبائل منطقة الشرقية ومشايخ العرب والأعيان في حركة انقلابية شديدة الخطورة.

حاول مصطفى باشا أن يوقع بينهما ويغري بأحدهما الآخر فأرسل لهما كلاً على حدة رسالة بقتل الآخر فانكشف الأمر وزاد تكاتف إينال وجانم.

استخدم مصطفى باشا السلاح العثماني الحاسم في شراء الذمم فاستقطب عدداً من أمراء المماليك والأعيان إلى صفه ترغيباً وترهيباً.

هنا يظهر القاضي موسى بن بركات (الزيني بركات) وقد كان لي مع سيرته ودوره البارز في العهد المملوكي كرجل النظام حديث طويل في كتابي (تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الأول).

انتهيت فيه مع ما انتهى إليه ابن إياس بدخول العثمانيين لمصر وصمت (بدائع الزهور في وقائع الدهور) عن أي ذكر للرجل بعد ذلك لكن الزيني بركات فجأة وعلى غير موعد يطل علينا مرة أخرى كوسيط بين مصطفى باشا والمتمردين.

فشل الزيني بركات في الوساطة وقطع إينال رأسه فقد اتهمه بخيانة المماليك وما أن نما لمصطفى باشا خبر مقتل الزيني حتى استشاط غضباً وأمر جيشه بالتحرك صوب الشرقية ووضع حد للتمرد وهو ما كان فقد قتل جانم وعلقت رأسه على باب زويلة ليكون عبرة لمن لا يعتبر فيما فر إينال إلى غزة واختفى للأبد.

نأتي إلى عهد الأسرة العلوية في مصر ومؤسسها محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القولي وقد حاول ولي عهد الدولة المصرية أن يعطي لأسرته نسباً عربياً تحول مع نهاية عهد الأسرة لانتساب فاروق نفسه للأشراف من ناحية والدته!

ففي مجلة (المصور) الصادرة يوم **25** نوفمبر عام **1949** وفي ذكرى مرور مائة عام على وفاة محمد علي باشا أدلى ولي عهد مصر آنذاك الأمير محمد علي بن توفيق بحوار صحفي مع عباس محمود العقاد أرجع فيه نسب الأسرة إلى ديار بكر في بلاد الكرد قائلاً في أمانة العالم المحقق بحسب وصف العقاد: "لا أعلم ولا أبيح لنفسي الظن فيما لا أعلم، ولكني أحدثكم بشيء قد يستغربه الكثيرون عن نشأة الأسرة العلوية، فإن الشائع أنها نشأت على مقربة من (قولة) في بلاد الأرناؤوط (ألبانيا)، ولكن الذي اطلعت عليه في كتاب ألّفه قاضي مصر على عهد محمد علي أن أصل الأسرة من ديار بكر في بلاد الأكراد، ومنه انتقل والد محمد علي وإخوته إلى قولة، ثم انتقل أحد عميه إلى الأستانة، ورحل عمه الثاني في طلب التجارة، وبقي والد محمد علي في قوله". ويدعم روايته هذه برواية للأمير حليم أحد أحفاد محمد علي تزعم نفس المزعم.

سؤال هامشي ربما استوقفك مثلي عزيزي القارئ: ما الذي يدعو العقاد الذي دخل في خصومة مع الملك فؤاد أن يغازل السلطة الحاكمة في عهد فاروق بالتسويق لمثل هذه التصريحات التي لا تخلو من مقصد دعائي؟!

الإجابة تتلخص في تقدم العمر ولم ينل الرجل ما يستحقه في صحبة الوفد الطويلة لا قلادة ولا نيشان ولا وزارة كما صعد من غضبه حصول عبد القادر حمزة رئيس تحرير البلاغ على الباشوية دونه وهو الصحفي الذي أفنى

عمره في معارك البلاغ ومعارك الوفد الحزبية والأدبية. لذلك كان توجهه للملك فاروق مفهوماً ومدحه بمناسبة وبغير مناسبة!! ويقول في قصيدة له مادحاً فاروق:

"وما اتخذت غير فاروقها
عماداً يحاد وركنا يؤم
ولا عرفت مثله في العلا
صديقاً يشاركها في القسم
فدته البلاد وفدّى البلاد
بعالي التراث وغالي القيم"

طبعاً بعد ثورة **1952** وبين عشية وضحاها انقلب العقاد طبيباً ووصف الملك فاروق بالملك المجرم والمريض النفسي الجامع بين سادزم (جنون القسوة) وكليبتومانيا (جنون السرقة) وساتيريسز (جنون الشهوة)!

ولأننا نتحدث عن العقاد فحري بنا أن نصحح معاً أمر تناقلته كل الكتب نقلاً عن أنيس منصور في مقال له بالشرق الأوسط في **2010** بعنوان (واعتذر أستاذنا العقاد!) من أن العقاد رفض الدكتوراه الفخرية؛ لأنه ظن أنّ امتحاناً يسبقها وأنه ليس هناك من يمتحن العقاد!! وأنّ "أساتذة الجامعات الذين لم يخرج من بينهم مفكر كبير أو أديب كبير أو شاعر كبير، ثم إنّ أساتذة الجامعة لا يقرؤون. فهم إذاً لا يقرؤون ولا يكتبون،

فكيف لهؤلاء أن يمنحوا العقاد الدكتوراه؟" طبعاً منطقياً هذا ليس صحيحاً لشخص كان وسط أعلام عصره الأقل شهادة دراسية وهذه فرصة بالنسبة له لكن دعنا من المنطق ولنذهب سوياً لشهادة دكتور طه حسين عن الواقعة على لسان الدكتور محمد الدسوقي في كتاب (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) والتي تتلخص أن العقاد وفي جلسة من جلسات مجلس الفنون والآداب تحدث مع كمال الدين حسين، وكان يشغل منصب وزير التربية والتعليم من أن له أكثر من سبعين كتاباً، والجامعة لا تبدي اهتماماً مثلما فعلت مع أحمد أمين وعبد العزيز فهمي قاصداً منحه الدكتوراه الفخرية تكريماً لعطائه!! وهو يستحقها إحقاقاً للحق ولكن تصحيحنا أنه من سعى إليها ولم ينَلها وليست هي من سعت إليه ورفضها.

ثقافة السلطان

على الرغم من الطريقة المبالغ فيها في رسم صورة السلطان بالعالم الجهبذ العارف ببواطن الأمور والموسوعي في كافة التخصصات ورأيه الحكيم في الانتصار للصواب إلا أن الكتاب للمدقق سيرى أن الكتاب أثمر عن العكس تماماً، وفضح جهل السلطان وافتقاره للمعرفة والحد الأدنى منها في مواضع كثيرة فمثلاً نجد الكتاب يرجع كفة السلطان في مسألة من البديهيات كالسؤال عن معنى الشافعي؟! ففي الروضة الأولى برمضان: "قال مولانا السلطان: لأي حكمة سموا الإمام الشافعي بالشافعي؟ الجواب: قيل

ماتت امرأة وهي حبلى، فأمر الإمام مالك بدفنها؛ فلما خرجوا من عند الإمام مالك لقوا الإمام الشافعي، وكان في ذلك الزمان شابّاً يقرأ على الإمام مالك، قال الشافعي: ادفنوها ولكن اعملوا على لحدها قصباً مجوفاً، وانتظروا ثلاثة أيام. فلما عملوا بقول الشافعي ولدت الميتة في اليوم الثاني، فأخرجوا الولد من القبر، فلما كبر وقرأ القرآن دخل هذا الصبي يوماً عند الإمام مالك، فأعجب الإمام قراءته، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا الذي أمرت بدفني مع أمي. فقال الإمام: كيف جرى؟ فقالوا: دلنا محمد بن إدريس على هذا. فقال الإمام: هو الشافعي. قال مولانا السلطان: هذا الجواب مردود بل الحق أن الشافعي اسم لجده، كما أن (الحنبل أيضاً اسم لجده ومنسوب إليه" فكان السؤال أقرب للسذاجة والإجابة بديهية بطبيعة الحال.

على النقيض نجد مسائل تدل على هشاشة وسطحية الغوري كهذه المسألة التي وردت في الروضة الأولى من رمضان "قال مولانا السلطان: امرأة رأت رجلاً فقالت: هذا ابني وأخي وزوجي وعبدي؟

عجز أهل المجلس عن جواب هذه المسألة.

ثم قال مولانا السلطان: أمهلتك ثلاثة أيام، رح فهات الجواب، وقال مولانا السلطان: ما يعرف جواب هذه المسألة إلا القاضي شهاب الدين بن الفرفور.

قلت: أروح عنده وأسأل وأجيب الجواب.

ثم بعث مولانا السلطان قاصداً إلى ابن الفرفور، وقال: إن الشريف يأتي إليك لجواب المسألة، لا تذكر له الجواب. فلما رحنا عند القاضي رحمه الله قال: ما نقول جواب مسألة السلطان إلا بأمر مولانا السلطان.

ثم درت في المدينة ثلاثة أيام، وسألت جميع الفقهاء والفضلاء، ما قال لي أحد جوابها.

ثم بعد ثلاثة أيام طلب مني مولانا السلطان جواب المسألة، قمت وبست الأرض وقلت: مولانا السلطان أعلم بها من جميع العلماء، ثم قرأنا الفاتحة.

الجواب: قال مولانا السلطان: إنه وقع نكاح الشبهة بين الأب والبنت فولد منهما ولد، ثم تزوج هذا الولد أمه أيضاً بالشبهة، ثم أسلمت الأم واشترت ابنه." فأي شبهات كهذه لتقع إلا بين بلهاء أو عديمي أهلية والأنكى هو ترك الجلساء لأشغالهم من أجل البحث عن الحل الذي أخفاه السلطان ليظهر بمظهر الفقيه العملاق!!

البداية والنهاية

من طرائف هذه المجالس قصة الغوري مع اعتلاء أريكة السلطنة فتذكر كتب التاريخ زهد الغوري في الحكم أو تظاهره بذلك وأنه حمل إليها وهو يبكي خوفاً من تبعاتها فبحكم سنه وخبرته كان مدركاً أنّ "الحُكم لمن غَلب"، و"الحاكم إما في القصر أو في القبر" وهو ما يجعله في خشية على حياته من تمرد المماليك خاصة الجلبان منهم وهو يعبر عن قلة ثقته

بالمماليك ومعرفته بنفاقهم بقصة طريفة في هذه المجالس تقول: "قال مولانا السلطان: ادعت جماعة محبة السلطان محمد القلاوون، فقال لهم: إن كنتم تحبونني ارموا أرواحكم من القصر! فقالوا: بسم الله. وجروا من أول سطوح القصر إلى نهاية طرف القصر، فوقفوا وقالوا: يا مولانا السلطان، محبتنا لك إلى هذا الموضع، فمن يزيد علينا قدماً فالمحبة له".

يذكر الغوري في هذه المجالس أن جلوسه على عرش مصر كان حلم أتاه في المنام: "قال حضرة مولانا السلطان: الحديد هو القوة بدليل أني يوماً من الأيام رحت إلى بيت الأمير يشبك الدوادار ورأيت فيها أميراً وقال لي: يا أمير قانصوه، رأيتك البارحة في المنام وأنت في طوق كبير من الحديد، ثم في النوم عرضت هذه الواقعة على الأمير يشبك الدوادار فقال لي في الجواب: الحديد هو القوة يحصل له دولة عظيمة وقوة كبيرة بدليل: وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ لا بد أن تحصل لك السلطنة، وهذه الحكاية كانت قبل هذا التاريخ بثلاثين سنة". وكما كانت البداية مع حلم فالنهاية أيضاً مع حلم ونبوءة ساقها إليه بعض العرافين من أن مُلكه سينتهي على يد شخص يبدأ اسمه بحرف (السين) لذلك كان يناصب الغوري العداء لكافة الأمراء الذين يبدأ اسمهم بالسين وفي مقدمتهم الأمير "سيباي" نائب الشام!!

وتشاء الأقدار أن تصدف نبوءة العرافين وتنتهي دولة الغوري بشكل درامي ولكن على يد صاحب سين أخرى.

مصير الرأس

لكن ما مصير رأس الغوري والتي أتعبتنا في هذا البحث بعد انكسار جنده أمام سليم الأول في مرج دابق؟

تختلف الروايات حول هذه الأمر فرواية تزعم أنّ جاويشاً من الجيش العثماني بحث عن الجثة وقطع الرأس وحملها لسليم الأول غير أنه فوجئ ببردة فعل مولاه الغاضبة لتزلفه إليه بقطع رأس سلطان مقتول وأن سليم همَّ بضرب عنقه لولا تدخل الوزراء للعفو عنه والاكتفاء بعزله.

وهناك رواية أخرى ذكرناها في البداية أنّ الأمير علان وهو من رجال الغوري الذين شهدوا المعركة وثبت معه حتى النهاية وحينما رأى الغوري يسقط عن جواده خشي أن يظفر به العدو ويطوفون برأسه كعادة هذه الأزمنة لإعلان الانتصار وإلقاء الرعب في القلوب فأمر عبيده بقطع رأسه وألقاه في جب..

****

طعنة صديق

مقدمة

ليس هناك ما يعادل الصداقة قدراً إنها أغلى هدايا القدر أن تخرج من هذه الدنيا القاسية بصديق العمر. هي مسألة فطرية حتى في عالم الحيوانات أيضاً مثل قرود البابون والدلافين التي تبني صداقات متينة.

وجود صديق بجانبك في خضم محن الحياة وأعاصيرها أمر بلا شك حيوي فهو الرفيق الذي تبثه مشاعرك الحقيقية وآراءك الصادقة بعيداً عن قيود المجاملات والبروتوكولات والأحاديث الروتينية وهو أمر لا تحسبه هيناً فهو من ضروريات الصحة فطبقاً لأحدث الدراسات العلمية فالحفاظ على الصداقات له تأثير إيجابي هام على جهاز المناعة وعلى صحة القلب والأوعية الدموية فضلاً عن صحة الغدد الصماء العصبية.

الأمر على النقيض في الحقل السياسي فالصداقة بين الساسة وهم وسراب وإن تكونت فهي على ندرتها مؤقتة تزول كلمح بالبصر فصديق الأمس عدو اليوم تبدو حكمة وجيهة تختصر تاريخ الصداقات في هذا العالم الحاشد المتخم بالصراعات والوشايات..

أشهر الصداقات في التاريخ المصري تلك التي ربطت بين مصطفى باشا النحاس زعيم الوفد ورفيق دربه في رحلة الكفاح الحزبي والنضالي ضد

المستعمر مكرم باشا عبيد.. لكن كما يقولون: "وقفة الرجل بمائة امرأة ولكن إن حضرت المرأة غادر الرجال". وهو ما حدث في قصتنا.

تاريخ طويل قضاه النحاس معاضداً لزعيم الوفد الأول سعد باشا زغلول وبعده مدافعاً عن القضية المصرية وحق مصر في تقرير مصيرها. رحلة كفاح لا ينكرها إلا جاحد طوت من سنوات عمره أنضرها لقد آن للشيخ الكبير أن يستريح وأن يعيش ما بقي من العمر مع شريكة للعمر المتبقي فوقع اختيار النحاس على زينب الوكيل سيدة شابة في مقتبل العمر وزعيم الأمة في خريف العمر هذا الفارق العمري بين الزوجين جعل النحاس في نظر معارضيه وخصومه يغض الطرف عن بعض ما اعتبره في الماضي ضريبة الجهاد فما الجرم في السعي للثراء؟ بل الضيم هو الاستمرار في الاعتماد على معاش قليل لا يفي باحتياجاته يجمعه من هنا وهناك.

في الماضي وتحديداً عام **1929** دافع مكرم عبيد عن النحاس وبعض قادة الوفد حينما اتهموا بتقاضي أتعاب كبيرة من الأميرة شويكار مقابل رفع الحجر عن أموال أخيها الأمير أحمد سيف الدين الطائلة (تناولنا قصته في كتاب حكايات من بحور التاريخ) وتحدث مكرم في مرافعة بليغة قائلاً: "ليس للسياسة ضمير في أي بلد من بلاد الله، أما في مصر فليس للسياسة عقل أيضاً" وأن القضية اجتمع فيها كل عناصر الظلام والإجرام "وكنا في كل ذلك مجنياً علينا لا جناة، فقولوا كلمتكم حاسمة فاصلة فإنّ شعاعاً واحداً

من نوركم يكفي لتبديد كثيف الظلام وكلمة واحدة من عدالتكم أنفذ إلى الباطل من حد السهام" ليحصل النحاس على البراءة.
مع ظهور الزوجة الجديدة والتغير الكبير في حياة النحاس تحول مجرى سهام مكرم من خصوم صديق العمر إلى قلبه مباشرة!! فمبلغ تجاوزات النحاس جعلته بين خيارين "إما حياة الوزير، أو حياة الضمير" مؤثراً الأخيرة لأنها حياة الشرف كما حركت قريحة الرجل الأدبية لتعطينا قطعة أدبية فنية قبل أن تكون مذكرة سياسية مرفوعة للملك فاروق ممثلاً عن الكتلة الوفدية المستقلة عام **1943** نوجزها فيما يلي:

1-النحاس بين السياسة والأوقاف:

الجمع بين وظيفتي السياسي وناظر الأوقاف جعلت النحاس في مرمى الاتهامات دائماً، لكن بقيت مجرد شبهات لا دليل عليها ينال من سمعة الرجل أو نزاهته، لكن ما خطه مكرم أحرج النحاس وجعله في موقف لا يحسد عليه، حيث أشار أن النحاس باع سرايته بسمنود لوقف عبد العال الذي يشرف عليه نظير عشرة آلاف جنيه مرتدياً ثوب المضحي في الوقت الذي يرفض فيه التنازل عن ألف واحد من المبلغ بهذه البيعة، فالنحاس في حقيقة الأمر قد باع السراي لنفسه لأنه ناظر الوقف الذي سيقيم فيه بحكم منصبه أما ادعاء النحاس أن زوجة ناظر الوقف هي من طلبت سراي تقيم فيها فيفنده مكرم بأن السيدة متزوجة من قاضٍ وتجوب معه القرى والمدن بحكم وظيفته.

يتحدث مكرم أيضاً عن وقف البدراوي والذي تولاه النحاس بشكل مؤقت وعارضت وزارة الأوقاف في الثلاثينيات توليه بشكل دائم وما أن وصل النحاس للوزارة عام **1942** حتى تغير الحال وأصبح ناظراً للوقف بموافقة وزير الأوقاف في وزارته!!

2-فساد السلطة وإرضاء الزوجة:

اتهم مكرم النحاس بشراء أراضي زراعية (**80** فدانا) لزوجته من فؤاد سراج الدين بناحية دمداش مركز شربين بنفس القيمة التي دفعها سراج وقت شرائها ونال الأخير في مقابلها البشوية ووزارة الزراعة وكذلك شراء **75** فداناً من ورثة آل عدس وهم من كبار التجار الإسرائيلين في مصر ناحية البركة مركز شبين القناطر بسعر بخس للفدان أقل من قيمته الحقيقية في هذه المنطقة.

كما اتهم النحاس باستغلال السلطة والنفوذ استغلال سيّئ لكونه الحاكم العسكري، علاوة على رئاسة الوزراء يأمر "فيفزع منه البشر أو فيفزع إليه القدر"!! فجلب لرئاسة الوزراء سيارة باكار بها جهاز تكييف الهواء علاوة على سيارة منزلية من نفس الطراز. "إلى غير ذلك من معدات الراحة والفخفخة التي يستمتع بها ذوو الثراء".

إقامة النحاس بالباخرة "محاسن" المملوكة للدولة إضافة لإقامة أنسبائه بها هذا السلوك شجع الوزراء على سلوك نفس المسلك فوزير المواصلات عبد

الفتاح الطويل باشا استأجر الباخرة "كريم" من وزير الأشغال عثمان محرم (أقام كوبرياً هائلاً للوصول بين عزبتي شربين ودكرنس)، وماطل في دفع الإيجار وحينما اكتشف الوزيران أنه محظور على الوزير استئجار شيءٍ من أملاك الدولة تم إخفاء العقد واستمر الوزير في التنصل من الدفع!! أما وزير الدفاع هو وأسرته فراق لهم سكن المتحف الزراعي!

ولم يكتفِ النحّاس بذلك بل أمر بإخلاء معهد لتعليم البنات بجاردن سيتي لبولاق وحوله لدار فخمة يقيم بها بإيجار بسيط، والطريف استيلاؤه على الثلاجة الضخمة والثمينة التابعة للمعهد ورفضه نقلها مع الطلبة للمبنى الجديد.

كما استأجر النحّاس منزلاً في رمل الإسكندرية وأجّره من الباطن لسيدة لتحوله بنسيوناً مع الموافقة على رخصة خمر، وبذلك خرق عقده مع المالك لكن تمت التسوية مع المالك وكمكافأة أصبح محامي الموكل عنه مرشحاً للوفد بعد أن كان من خصومه.

بعد ثورة **1952** بدأت تفتح بعض ملفات التجاوزات التي تمت لصالح السيدة زينب الوكيل، ففي أخبار اليوم بتاريخ **15** مارس **1953** أن مجلس الدولة بحث إلغاء عقد إيجار عشرة أفدنة من أراضي المباني في إمبابة، منحت لزينب الوكيل لمدة **99** عاماً لتقيم عليها مباني لمؤسسات "أسبوع البر" لكنها طوال تسع سنوات مضت لم تقم ببناء مبنى واحد عليها.

3-فساد النسباء:

يرصد مكرم محاباة النحّاس لعائلة زوجته بجعل أحمد الوكيل نائباً لباب الشعرية، وشراء النسباء لعمارتين ضخمتين وفخمتين في أحسن الأحياء إحداهما عمارة واكد بشارع إبراهيم باشا، والأخرى بشارع سليمان باشا كما ساعدهم في تعديل دينهم للبنك العقاري الزراعي المصري وجعل فائدته **1**٪ تطبق بأثر رجعي مع تجميد الديون والاكتفاء بتحصيل الفائدة عنه في السنوات الثلاث الأولى، وهذا التيسير قاصرٌ على ورثة عبد الواحد الوكيل فقط وليس لغيرهم في سابقة مدهشة.

تنبع أهمية الكتاب من مكانة صاحبة فالكتاب لم يصدر عن صحفي مغمور يسعى للشهرة عبر تشويه سمعة الوفد وزعيمه، ولم يصدر عن القصر والملك فاروق والذي حمل خصومة للوفد توارثها عن أبيه، وتأججت مع حادث **4** فبراير عام **1942** الشهير إنما صدر عن واحد من أقطاب الوفد وصناع أحداثه.

مصير الكتاب

بالطبع وُئِدَ الكتاب في مهده وصودر بأمر النحاس رئيس الوزراء والحاكم العسكري آنذاك مع إعلان الأحكام العرفية.. لكنّ الكتاب صِيغَ لمعارضة حقيقية كانت قبله واستمرت بعده ففي كتاب (صحيفة سوابق) لعبد الحميد محمد المشهدي عام **1938** سلط الضوء على ديكتاتورية النحاس وبشاعة سجونه القاسية التي حشد فيها أحرار الطلبة وحملة المصادرات

لصحف المعارضة والاعتقالات والمسؤولية المشتركة له مع حكومة محمد نسيم باشا عن شهداء أحداث كوبري عباس الأولى ويناقش الكتاب قضية فساد جمعت النحاس ومكرم معاً، وهي قضية السماد الألماني ذلك أن النحاس كان في زيارة لألمانيا وطمعاً في لقاء هتلر قبل أن تشتري مصر من ألمانيا سماداً بمبلغ ثلاثمائة ألف جنيه تدفع نقداً وليس عن طريق المقايضة المتعارف عليها وقتها وأن "إرادة الزعيم المعبود" أرغمت بنك التسليف على القبول على الرغم من وجود سمادٍ كافٍ لمدة ثلاث سنوات قادم من المجر مقابل صفقة قطن وقد أنعمت الحكومة الألمانية على النحاس ومكرم وعقيلتيهما بأوسمة ألمانية وفي المقابل أنعمت الحكومة المصرية على وزير خارجية ألمانيا وزوجته بأوسمة مصرية!!

نعود لكتاب مكرم والذي حاول أن يبرر خصومته مع النحاس بشكل حيادي بعيداً عن تغير النفوس وشخصنة القضايا ففي مجلة آخر ساعة عام **1946** وفي باب صندوق العجب تحدثت الصحيفة أن السلطات الإنجليزية تحول دون محاكمة النحاس باشا وأن مكرم عبيد باشا متمسك بوجوب المحاكمة ناقلة عنه قوله: "إن هناك من يعتقد أنني أكره مصطفى النحاس أو أحقد عليه بسبب المعاملة التي لقيتها منه قبل اعتقالي وأثناء اعتقالي ولكن صدقوني إنّني لا أكره الرجل ولا أحقد عليه بل لازلت أذكر ماضيه

وماضيّ وما أنا بكافر بالماضي وذكرياته ولو أن النقراشي باشا أدخل النحاس باشا السجن لذهبت أنا بنفسي إلى السجن وأخرجته".

سؤال هامشي: هل استطاعت مصر في خضم هذه الصراعات الحزبية المحتدمة تحقيق أي اكتفاء ذاتي حتى ولو من السلع الغذائية البسيطة؟

سنصدم من إجابة ذلك في حوار الدكتور علي إبراهيم باشا مدير الجامعة لمجلة كلية الزراعة (مجلة جامعة موضوعها الرياضة والاجتماع يصدرها اتحاد كلية الزراعة) في عددها الأول في أبريل **1942** وقد أبدى الرجل دهشته أن "تكون مصر بلداً زراعياً وتستورد المربى من سويسرا والجبن من البلقان" ومع اطلاعه على "إحصاءات مصلحة الجمارك" منذ أربع سنوات وجد أن استيراد الجبن بما يوازي نصف مليون من الجنيهات (مبلغ كبير في ذلك الزمان).

صداقة من جديد

عادت المياه لمجاريها بين الصديقين الخصمين مع غصة بالنفس لا تواريها الأيام وقد ظهرا معاً في أول وأعظم المليونيات الشعبية في تاريخ مصر بميدان التحرير في **14** نوفمبر **1951** والأشبه بثورة **1919** ضد الاحتلال البريطاني. فمن كان على حق ومن كان على باطل في الخصومة؟ لا أعلم ولكن ما أعلمه أن تأملاتي في هذه القصة قادتني لفتنة سيدنا عثمان بن عفان وأسبابها، ومنها منحه لزوج ابنته الحارث بن الحكم يوم عرسه مائتي ألف درهم من بيت مال المسلمين فجاءه زيد بن أرقم خازن مال

المسلمين يطلب باكياً إعفاءه من منصبه بسبب هذه العطية فقال سيدنا عثمان في دهشة: (أتبكي يا ابن أرقم أن وَصَلْتُ رَحِمي) فرد الرجل متأثراً: (لا يا أمير المؤمنين، ولكن أبكي لأني أظنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ والله لو أعطيته مائة درهم لكان كثيراً) فغضب عثمان وأعفاه من عمله وأنا أستعرض هذه القصة فأنا لا أتهم سيدنا عثمان معاذ الله، وهو الذي أنفق في سبيل الله ما أنفق إيماناً واحتساباً، بل أضعها في سياق سوء الفهم الذي وقع بين المسلمين وأدى للفتنة والفرقة وتمزيق الجسد المسلم في أول اختبار لصلابته بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولأننا لا نتعلم من التاريخ ولا نسعى لرأب الصدع فقد تكرر الحادث في صفوف الوفد وسيتكرر مادمنا لوأد الفتن غير فاعلين.

****

الليلة الأخيرة

لم يكن فاروق يتصور أنّ عشاءَه مع أفرادٍ من حاشيته، كإنطوان بوللي ونهاد رشاد وزوجها يوسف رشاد طبيبه، والأميرة فائزة وزوجها محمد علي رؤوف، والأميرة فوزية وزوجها العقيد إسماعيل شيرين، والنبيل محمد وحيد الدين بن الأميرة شويكار، في فندق سيسل بالإسكندرية سيكون الأخير وأن ساعات قليلة تفصله عن المصير الموعود وأي مصير!!

وحتى نكون على مقربة من لحظات فاروق الأخيرة كان لزاماً أن نعود لمذكراته؟ وهل لفاروق مذكرات؟!!

كانت عدة أحاديث لفاروق أدلى بها للصحفي نورمان برايس في سلسلة مقالات نشرت بصحيفة «ذا صنداي هيرلد» البريطانية حملت عنوان: «الملك السابق فاروق يروي قصته»، وممهورة بتوقيعه «الملك فاروق فؤاد، ملك مصر المنفي» بداية من **12** أكتوبر **1952**، وقد غلب على المذكرات شعور لدى الملك بعدم تصديق ما حدث والغضب الشديد الذي يبدو من تعليقه على حوادث صغيرة قد لا تستدعي عنايته فأضاع فاروق جزءاً كبيراً من أحاديثه في الرد على اتهامات صحفية ساذجة من عينة "فاروق يفطر ب **12** بيضة" و"حمامات فاروق الساخنة تستخدم كل مخزون المياه في الفندق" و"لون قميص نوم ناريمان" وإفراد صفحات كاملة لها وكأنما بدأت تثير حفيظته وحنقه الاتهامات التي تتطاله من أصحاب العهد الجديد أو

"النجيبيون" كما أطلق عليهم إلا أن تهديدات صدرت لفاروق من مصر بالصمت تماماً بعد ذلك فتوقف وإلى الأبد.

تكشف الأحاديث عن كواليس الأيام الأخيرة قبل الانقلاب وأن الملك قد أخبر من جانب ضابطين بموعد الحركة وبدوره اتصل برئيس الأركان لتحذيره لكن الأمر قد قضي وتم حصار مبنى القيادة العامة.

كان فاروق شديد التوتر في لحظات عصيبة يخشى فيها على نفسه وعلى أسرته ومن الشائعات أيضاً ومن المذكرات نستطيع أن نصل إلى أنه لولا ولاء القوات البحرية لفاروق حتى آخر لحظة ودعم وتأمين السفير الأمريكي (جيفرسون كافري) لخروجه وأسرته سالمين ودخول علي ماهر باشا الرجل المعادي للشيوعية كوسيط مخلص بين الملك والجيش لربما لاقى فاروق مصير الملك فيصل في العراق، ولذلك كان خروج فاروق إلى قصر رأس التين في حماية القوات البحرية كذلك تكشف المذكرات أن خروج فاروق بالبحر وليس بالجو كان نتيجة خشية فاروق على حياته وحياة ولي عهده من أن يكون هدفاً لسلاح الجو المصري.

بحسب الأحاديث تولى تأمين قصر رأس التين فرقة عسكرية سودانية قوامها ثمانمائة مقاتل لكن هذا لم يمنع من حدوث إطلاق نار من جانب الثوار ويتحدث فاروق عن انبطاحه وزوجته الملكة ناريمان وبناته لتفادي النيران، ثم انخراطه في إطلاق النار بعد ذلك حيث أصاب رجلاً في ساقه وآخر في كتفه وهي مسألة لم ترق لفاروق الذي كره أن تكون الدماء سيدة

الموقف والتقاتل يستعر بين جيشه كما قبض على اللواء عبد الله النجومي باشا قائد الحرس الملكي وكبير الياوران. كان فاروق ذكياً بما يكفي ليدرك أن اشتراك القوات البحرية في تصفية حركة يقودها باقي الجيش ضده بمثابة انتحار، لذا كان لجوؤه للمهادنة والوساطة في منتهى الحكمة؛ فتحدث مع علي باشا ماهر وسفير الولايات المتحدة كافري وهو يكشف لنا الطريقة التي استخدمها في الاتصال على الرغم من حصار القصر وقطع الاتصالات عنه تماماً، فقد كان يحتفظ في قصره بخطي تليفون سريين لمثل هذه الطوارئ وهو ما يتفق مع شهادة الملكة ناريمان.

يؤكد الغريب الحسيني حارس فاروق في مذكراته "سنوات في البلاط الملكي" أن تبادلاً لإطلاق النار قد وقع بين القوات المحاصرة للقصر وكتيبة حرس الحدود التابعة للحرس الملكي وأن توفيق بك زاهر الياور الخاص والمصاب بالسكر أصيب فيها وذلك بعد وقت قصير من مغادرة علي باشا ماهر القصر ومعه وثيقة التنازل عن العرش والطريف حول هذه المسألة وتنفرد به مذكرات الغريب أن اعتراض فاروق على الوثيقة والذي وصل لحد الصراخ لم يكن بسبب عبارة "نزولاً على إرادة الشعب" ولكن على مخاطبته بملك مصر دون السودان مما استشعر منه نية رجال الثورة فصل السودان عن مصر!!

خرج فاروق ببعض من شروطه فأطلقت له المدفعية **21** طلقة ولم تصور مشاهد خروجه سينمائياً، لكن مندوب مجلة الجيل الجديد نجح في تصويره من الخلف أثناء وقوفه على ظهر اللنش الذي نقله للباخرة المحروسة.

ولكن لماذا وقعت الثورة على فاروق؟!

يوجه فاروق سهام الاتهام في تدبير الانقلاب عليه إلى الإخوان المسلمين والشيوعيين وأن السفارة الروسية في القاهرة هي من أمدت الإخوان بالأموال مستبعداً قدرة نجيب على التخطيط لهذا الانقلاب منفرداً وأن الروس يخططون لأن تكون مصر كوريا ثانية، وأنه كان العقبة التي تقف أمام مخططهم باعتباره "أول حاكم شرق أوسطي سجلته الخارجية البريطانية معارضاً للمد الشيوعي ومحذراً من آثاره"، وأنه سمح بوجود سفارة لهم تحت ضغوط السير مايلز لامبسون المندوب السامي البريطاني باعتبارهم حلفاء بريطانيا!! واصفاً نفسه بالملك الذي "كان نقطة التجمع الوحيدة ضد الشيوعية في الشرق الأوسط" وهو ما يتفق مع شهادة (أحمد مرتضى المراغي) آخر وزراء الداخلية في العهد الملكي في كتابه "شاهد على حكم فاروق" من أن النشاط الشيوعي في مصر كان مؤرقاً لفاروق وجل اهتمامه كان منصباً عليه. كما تطرّق فاروق لأسماء ممثلي الشيوعية في مصر مثل: فتحي رضوان والذي عينه محمد نجيب متحدثاً عنه ووزيراً للإرشاد ودرية شفيق بنت النيل ويقال: إنّ سؤال فاروق الأخير لسكرتيره

الدكتور حسين حسني عن مدى وقوف الشيوعيين والإخوان في الثورة ضده.

فهل ما تصوره فاروق كان حقيقياً تماماً؟!

في وجهة نظري أنّ ما ساقه فاروق كان جزءاً من الحقيقة وليس جل الحقيقة، وأن من الأسباب الأخرى التي أفقدت فاروق عرشه هو وطنيته الشديدة وكراهيته للبقاء الإنجليزي بمصر، والذي بات معلناً مع نهاية حكمه فقد ظهر محرضاً على الكفاح المسلح في منطقة القناة المطالب بالجلاء عام **1951** والذي أعلنه النحّاس بعد إلغاء معاهدة **1936** وقد تزامن مع تأميم الدكتور (محمد مصدق) للنفط في إيران في نفس العام وطلبه خروج الموظفين البريطانيين من ميناء عابدان الإيراني مما جعل تشرشل يقول عن الحالة في القناة "لقيطة الحالة الإيرانية" لذا كان لابد من تحرك على كلا الجبهتين باتفاق أمريكي، فكانت مباركة الثورة في مصر عام **1952** وتدعيم الانقلاب على مصدق عام **1953**.

ومن الحوادث الدالة على التحريض ما كان في يوم **14** يناير **1952** حيث استشهد طيار بشركة مصر للطيران يدعى "أحمد محمد عصمت" بنيران الإنجليز بعدما رفض الخضوع لتفتيش نقطة تفتيش إنجليزية عند التل الكبير مطلقاً الرصاص من مسدسه على رئيس القوة، فأعلن فاروق

تكفله بنفقات تعليم أبنائه من جيبه الخاص وصرف مرتبات شهرية لهم من الخاصة الملكية كما أهدت الأميرة فريال لابنة الشهيد مصحفاً.

كما سبق ذلك سعيه للاتصال مع الألمان مما تسبب في حادث **4** فبراير **1942** وكذلك استضافته لرجال حاربوا الاستعمار في بلادهم مثل عبد الكريم الخطابي والحاج أمين الحسيني والحبيب بورقيبه.

لذلك لا تعجب يا عزيزي من عدم مبادرة الإنجليز لإنقاذ عرش فاروق؟ الطريف هو ما تكشفه مذكرات الدكتور حسين حسني السكرتير الخاص لفاروق "سنوات مع الملك فاروق شهادة للحقيقة والتاريخ" أنّ رجال الأحزاب كانوا على وفاق مع الإنجليز حول ضرورة التخلص من فاروق ومنذ وقت مبكر؛ فبحسب الكتاب أن النحّاس باشا ومكرم باشا عبيد اجتمعا مع السفير البريطاني في نوفمبر **1937** وتحدثا عن وجوب عزل فاروق لتصرفاته غير الدستورية، واقترح مكرم الأمير محمد عبد المنعم بدلاً عنه وأن محمد محمود باشا عام **1940** أبدى للسفير البريطاني تمنياته أن تساعدهم الحرب في التخلص من فاروق والغريب هو حسين سري باشا نسيب الملك والذي كان يرى خطورة في بقاء فاروق على العرش. وربما ردوا ذلك لأسباب عقلية تمنع فاروق من الاستمرار، فأحمد مرتضى المراغي وزير داخلية فاروق تحدث نقلاً عن محمد محمود باشا وعن أبيه الشيخ المراغي أن ناظر الخاصة الملكية زكي الأبراشي باشا حدثهما أن فاروق في صباه أصابته

الحمى الشوكية النخاعية وأن ارتفاع درجة حرارته ربما أضر بخلايا مخه بحسب ما قاله الطبيب "فرجوني" للملك فؤاد.

السبب الثاني في الخلاص من فاروق والمهم هو موقفه النبيل تجاه القضية الفلسطينية وقراره بخوض الحرب ضد العصابات الصهيونية في فلسطين على الرغم من عدم حماس رئيس وزرائه محمود فهمي النقراشي، بل وزيارته بنفسه لقواته على الجبهة ودعوة المواطنين في عهد وزارة إبراهيم عبد الهادي للمساهمة في دعم الجيش ومن فرط إيمان فاروق بالقضية أنه غضب على إسماعيل صدقي باشا بسبب رأيه أن قوة اليهود وتنظيماتهم العسكرية تدعو للتريث والحذر (وهو ما تحدثنا عنه من قبل) وأن الغضب وصل إلى حد أن جنازة صدقي لم تكن بالشكل الذي يليق بالرجل الذي خدم القصر سنوات طويلة. كان الرأي العام في مصر مشحوناً أيضاً بقضية فلسطين منذ مهدها فنجد الأستاذ (فكري أباظة) في مقال له في نوفمبر **1945** تعليقاً على خطبة العرش يقول: "إنّ قضية فلسطين هي قضية مصر وقضية الجامعة العربية فإنْ تحدت أمريكا أو إنكلترا فالتحدي موجه لمصر وللبلاد العربية كلها كتلة واحدة متراصة حول الحق والكرامة والعدل وهذا رسم حاسم للسياسة العربية لا لبس فيه ولا إبهام " رحم الله سنوات التحدي والكبرياء العربي.

والحقيقة أنّ ما ألصق بفاروق من تهم تخص ما سمي بقضية الأسلحة الفاسدة ثبت في حينه وبعد الثورة أنه محض افتراء وأن فاروق عزم بعد هزيمة **1948** على بناء الجيش المصري بمساعدة ألمانية عبر استدعائه عام **1951** للجنرال (ارتوفيلهلم شميث) نائب هتلر بحسب ما جاء بمذكرات الغريب. رغم كل هذا فالمدهش هو الاحتفاء الكبير من فاروق بالأمير آلاي السيد طه (الضبع الأسود) بعد عودته من حصار (الفالوجا) ثم إبعاده بشكل سريع إلى منقباد وهو الفعل غير المبرر وسط شائعات وقتها باعتقاله في الطور إلا إذا كان فاروق قد خشي من تنامي وضع بعض الضباط داخل جيشه وهو حذر كان بالتأكيد في الاتجاه الخاطئ!

مشكلة فاروق أيضاً في ظني أنه لم يدرك حقيقة موازين القوى العالمية في عهده؛ فانقلاب حسني الزعيم عام **1949** كان فاتحة الانقلابات العسكرية في المنطقة وتقاربه مع الولايات المتحدة الأمريكية، واستعداده للصلح مع إسرائيل لم يلق استيعاباً لدى فاروق بأكثر من أنّ ذلك سيناريو للمناداة به ملكاً على سوريا وحسني الزعيم نائباً عنه لمواجهة مشروع الهلال الخصيب العراقي والحقيقة التي لم يدركها فاروق أن الولايات المتحدة الأمريكية كوريث للنفوذ البريطاني بدأت تطل بأنيابها وأن انقلاب حسني الزعيم كان البداية، ثم انقلاب سامي الحناوي عليه مدعوماً من بريطانيا كان صراعاً على الهيمنة بين قوتين عظمتين على الإحلال واقتسام النفوذ وتلويحاً

بريطانياً بأننا لازلنا هنا.. ولو كان أحد غيره في الحكم لما فكر في خسارة أحدهما.

نأتي لسؤال من واقع أحاديثه: لماذا لم يستعن فاروق بالقوات البريطانية المرابطة على مقربة منه أسوة بعمه توفيق حينما تعرض لنفس الموقف قبل سبعين عاماً؟!!

يجيب فاروق عن ذلك بأنه كره أن يكون إنقاذ حياته على أسنة رماح القوات البريطانية وبالتالي يخسر أي دعم شعبي إذا اقتضت الظروف ذلك خاصة وأنه يرتكن إلى رصيد شعبي لا بأس به بعد حادث **4** فبراير، فآثر الحل السلمي عبر أمريكا القوى العظمى الصاعدة والمناوئة للاتحاد السوفيتي وتسعى لدور متزايد في منطقة الشرق الأوسط. ثمة سبب آخر لمحته بين مذكراته وإن لم يشر إليه صراحة وهي ظروف النشأة وقسوة المربية الإنجليزية التي جلدته بالسوط وهو طفل لأنه خلع معطفه الصوف وما أضمره في نفسه من أن يرد لها الصاع صاعين حينما يكبر لكنه عفا واكتفى بطردها خارج القصر فقسوة المربية الإنجليزية ولدت لديه شعور بالكراهية لكل ما هو إنجليزي علاوة على الطريقة الفظة التي كان يعامله بها السير مايلز لامبسون وكانت على قائمة الموضوعات التي تحدث بها إلى الرئيس الأمريكي (فرانكلن روزفلت) في جلستهما على متن الطراد الأمريكي "كوينسي" في البحيرات المرة عام **1945**.

إذاً هل اختار فاروق التخلي عن الحكم حقناً لدماء جيشه حقاً كما يزعمون؟ أم لأنه قرأ مستقبل العالم كما يروج محبيه وأن العالم سيكون به خمسة ملوك أربعة بالكوتشينة وملك بريطانيا فقط، ولذلك غير بنفسه مسمى السلام الملكي إلى السلام الوطني؟

أعتقد أن تخلي فاروق عن العرش بهذه السهولة ودون مقاومة كان لأسباب عكس ما يتم تداوله تماماً، فالواضح أن القيادات الموالية له بالجيش والداخلية كان قد تم القبض عليها والقوات البحرية التي تدين له بالولاء ليست كافية لتدخل في معارك من أجله، وربما كانت قياداتها ليست على اتفاق تام حول خوض مثل هذه المعركة الخاسرة، هذا بفرض أن المعركة كانت مطروحة من الأساس. الأمر الآخر ما أشرنا له في البداية أنّ فاروق لم يقرأ المشهد العالمي بشكل صحيح بعد الحرب العالمية الثانية، وأن موازين القوى قد تبدلت وأصبح القطبين الصاعدين هما روسيا التي عاداها بشدة وأمريكا التي تساند الكيان الصهيوني الذي عاداه فاروق في مهده وأصر على خوض حرب ضده فمن الطبيعي حينما تدور الدوائر حول فاروق أن تتخلى عنه جميع القوى العظمى الصاعدة، وربما أبلغ بشكل صريح بأن وجوده غير مرغوب فيه وعليه أن يرحل في مقابل تأمين حياته وحياة أسرته والإبقاء على ابنه ملكاً تحت الوصاية وهو ما قد كان.

من بين ما جاء في الأحاديث رؤية فاروق لرجالات نظامه فيصف فاروق (علي ماهر) بالرجل الفاضل المخلص الذي تحمل الإهانات حتى اللحظة

الأخيرة من أجل عرشه والواضح أنّ فاروق كان يشعر بالامتنان لكل رجالات أبيه واختياراته، فيما لم ينطلِ عليه إظهار البعض تعاطفاً معه في ساعاته الأخيرة.

كان حدس فاروق مشتعلاً طوال الوقت لا يستطيع أن ينزع احتمالية الخيانة من أيٍّ من مساعديه، فقد تخلى عنه من كان يؤمن جانبهم فما بال البعيدين؟! فنجده يصف دموع (سليمان حافظ) التي كست وجهه وهو يحمل وثيقة التنازل وعلامات التأثر البادية عليه وتطوعه للاتصال بأصدقائه "بدموع التماسيح"، فهي حيلة تمثيلية لمعرفة أسماء من ظلوا على ولائهم له وقد يآزرونه ضد المتمردين ولفاروق الحق في ذلك إذا علمنا أن أحمد مرتضى المراغي وزير داخليته وفي ظروف دقيقة كهذه كان يحمل قدراً كبيراً من الضغينة والكراهية، كذلك موقف محمد حيدر باشا وزير الحربية السابق والقائد الأعلى للقوات المسلحة من فاروق يعكس تراخياً في التعامل مع عناصر الجيش الثائرة منذ البداية.

أما موقف فاروق من محمد نجيب والذي استبدل اسم ابنه البالغ من العمر **14** عاماً من فاروق لصلاح الدين بعد الثورة فكان على شقين. الشق الأول يبدي فيه تعاطفاً مع رجل يراه مدفوعاً من الخلف وأنه يخشى على حياته وهو ما تحقق بالفعل من خلافات لنجيب مع مجلس الثورة في أزمة مارس **1954** وما تلاها من تحديد إقامته ويقدم فاروق دليله على هذه النظرة

المستقبلية بقول نجيب له وقد أتى لوداعه متأخراً على لنش مسرع: "أنا لست مسؤولاً عن الذي حدث! كنا نأمل خيراً بهذا الانقلاب، لكن الأمر خرج من أيدينا وتطورت تداعيات الموقف لأبعد مما كنا نتصور!".

الشق الثاني كان ينظر فيه فاروق لنجيب باعتباره رجلاً مراوغاً يجيد طمس الحقائق فعلى الرغم من مطالبه التي وافق عليها الملك قبل ثلاثة أيام من الانقلاب بترقيته إلى رتبة فريق إلا أنه أدعى أنها كانت عرضاً من فاروق ورفضه، وكذلك فيما يتعلق بطلب نجيب وداع فاروق والذي تغير بعد ذلك إلى كونه من شروط فاروق للتنازل وفي ذلك يجد فاروق دهشة في فهم إحجام نجيب عن الاعتراف بالحقيقة كسلوكٍ راقٍ تجاه الرجل الذي تمت إزاحته عن عرشه.

ولا تخلو الأحاديث في هذا الجانب من محاولات لدغدغة العواطف عبر إشارة فاروق لكونه ملكاً دستورياً، بينما حُكمُ نجيب حكمٌ ديكتاتوريٌّ متجاهلاً قرب الفترة الزمنية التي يدلي فيها بأحاديثه فتلاعبه بالدستور وأزماته مع الوفد وتقريبه لحكومات الأقلية التي اشتهر بها عهده وعهد أبيه كانت محفورة لدى الجيل الذي يخاطبه وقتئذ.

السؤال: كيف استقبل قادة الثورة الجدد تصريحات فاروق؟

جاء رد (محمد نجيب) على فاروق قاسياً، فبحسب جريدة الأهرام جاءت تصريحاته بأن "الحرس الملكي لم يدافع عن الملك السابق، بل انضم إلى الجيش وأن الشذوذ الحسي يسيطر على فاروق ورجال حاشيته يلعنونه

ويلعنون الظروف التي جمعتهم به "وأن الثورة عليه تستهدف المبادئ الديموقراطية الصحيحة وأن "عملنا الصالح خير رد على إفتراءات الملك السابق".

الطريف أن نبوءات فاروق للوضع من بعده انتصرت في النهاية بحدوث اضطرابات وإضرابات في مصر ووقوع هجمات على الممتلكات الأوروبية والتدخل البريطاني والأمريكي ومن غدر الضباط بنجيب!!

نأتي لحديث فاروق عن رحلته للمنفى بإيطاليا وقد سيطرت عليه هواجس الخشية على حياته من الاغتيال فهم بإظلام المحروسة تماماً، ثم تراجع عن ذلك كما زعم أن سفينة مدفعية رمادية اقتربت من المحروسة التي تقله وأسرته لنسفها والادعاء بعد ذلك بانتحاره، وأن جلال بيك علوبة قائد المحروسة وباقي الطاقم كانت أسرهم رهن الاحتجاز لضمان عودة الطاقم وعودة المحروسة بأمر نجيب! وهو ما يتوافق مع مذكرات الغريب الحسيني "سنوات في البلاط الملكي".

أكثر ما استولى على فكر فاروق في أحاديثه كان دفع الشائعات عن نفسه والتي تناقلتها صحف الثورة حول ثروته والصناديق الحافلة بالأموال التي خرج بها من مصر والتأكيد على أنّ ذلك عارٍ تماماً من الصحة فمائة وخمسين صندوق بصحبة ستين فرداً من المرافقين له تعني أن نصيب الفرد ثلاثة صناديق وحسب، لا تكفي إلا للأغراض الضرورية من ملابس وألعاب للأطفال وأن الصناديق الكثيرة الممتلئة بالخمور على سطح السفينة

كانت جزءاً من بروتوكولات ومراسم الترحاب بالضيوف الأجانب وليست لاستخدامه الشخصي كما أشيع، وهو حريص أن يكون دفاعه عن نفسه أمام ابنه ملك مصر المقبل غافلاً عن أن مستقبل الملكية في مصر على وشك الانقضاء بعد أشهر قليلة من هذه الأحاديث.

بحسب لجان الجرد التي تشكلت بعد الثورة فثروة فاروق كانت **55** ألف فدان ورثها عن أبيه وزادت إلى **146** ألف فدان منهم **23** ألف فدان اشتراها والباقي استولى عليها قسراً وحساباته في البنوك كانت **2** مليون و**600** ألف جنيه بالبنك الأهلي ومليون و**100** ألف جنيه ببنك مصر سحب منها مليوناً قبل رحيله، وله حسابات في البنك البلجيكي بأسماء مستعارة سحب منها أمواله قبل مغادرته أيضاً، وبحسب صحيفة المصري في **28** يوليو **1952** فثروة فاروق بالخارج قدرت بأكثر من **10** ملايين دولار في بنوك أمريكا وحدها والتي نصحه مسؤولوها بعدم اللجوء لبلادهم.

لا ينبغي إغفال مسؤولية فاروق بشكل مباشر عن بعض الشائعات التي نالت من سمعته فيما يخص علاقاته بالراقصات وبعض نجمات السينما في عصره، وهي شائعات حرص فاروق على تنميتها بإجماع معاصريه للتغطية على فقدانه القدرة الجنسية عقب حادث القصاصين عام **1943**، كذلك

تصرفاته الشخصية التي حطت من صورته كملك في نظر رعيته، فماذا يقول شعب عن ملك يقترن اسمه بالملك الصالح على صفحات الجرائد نهاراً فيما يشاهدونه ليلاً يلعب الورق في نادي السيارات؟! وهي أمور كان يمكنه أن يجعلها بعيداً خلف جدران قصره، كذلك شهر العسل الذي قضاه مع عروسه ناريمان في أوروبا وجعل شيخ الأزهر (الشيخ عبد المجيد سليم) يقول: "أتقتير هنا وتبذير هناك؟"، كما نشر أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة مقالاً حمل عنوان "رعاياك يا مولاي" معززاً ذلك بصور لأطفال ينامون في العراء ملابسهم ممزقة وأقدامهم حافية ومرارة الحاجة تعتصرهم.

سؤال على الهامش: هل كان وضع الفقر في عهد فاروق مختلفاً عن وضعه في عهد والده الملك فؤاد؟

لا بالطبع، فالفقير كان خارج معادلات الحياة وحسابات التنمية في هذه الأزمنة طوال الوقت ولا تنظر يا عزيزي لفخامة القصور والفلل والشوارع بالصور القديمة على صفحات الفيس بوك التي تترحم على الزمن الجميل فجدي وجدك لم يكونا يوماً من ساكنيها!!

نعود لإجابة السؤال: في **17** ديسمبر **1928** حملت مجلة (كل شيء والعالم) على غلافها عنوان: "فقراؤنا عار على الوطن: لماذا يجب أن نمحو الفقر والشحاذة؟" جاء ذلك بمناسبة انعقاد مؤتمر الطب في القاهرة حيث كرهت المجلة أن يأتي الأطباء للمؤتمر من بقاع العالم ليروا "العار" من "أمثلة

الإنسانية المعذبة في شوارعنا"، فبحسب المجلة "ليس في العالم كله مدينة كالقاهرة يرى فيها الإنسان هذه الجثث الحية التي يسير بها أصحابها وكأن نفوسهم تجر أبدانهم" من فرط الضعف و"الأيدي المجذومة" التي تمتد إلى الأغنياء طلباً للصدقة، والأم الشاحبة تحمل أطفالها وحولهم "سرادق من الذباب"، تسمع طلبها للصدقة من الضعف "كاستجارة مريض ومواء القطة" وأن "أكواخ الفلاحين" لا يمكن اعتبارها منازل، والأمراض بين الفقراء تنتقل إلى الأغنياء، لذلك طالبت المجلة الحكومة باستخدام الاحتياطي المالي الكبير للقضاء على الفقر (هل علمت الآن لماذا قاموا بالثورة؟!).

من العوامل الخارجية التي عجلت بنهاية فاروق ومن ثم الملكية في مصر الفضائح التى ارتبطت بأسرة محمد علي باشا كزواج الأميرة فتحية من رياض غالي الذي أسلم من أجلها وزواج الأميرة فاطمة طوسون بغير موافقة فاروق من أمير برازيلي مسيحي هو "دوم جوان"، بقي على ديانته إضافة لفضائح الملكة نازلي كلها أضعفت من مكانة فاروق ونالت من احترام العرش.

سعى فاروق أيضاً لانتحال صفات ومسميات تمنحه مزيداً من الوجاهة أسهم في رسم صورة عبثية ومضحكة له بين العامة والخاصة؛ فالملك السابق الذي لم يحصل على أية شهادة في حياته جاءت الصحف لتبشر القراء بالدكتور فاروق مرتدياً روب دكتوراه جامعة فاروق في عام **1943**، كذلك

سعى فاروق للانتماء للأشراف وثبوت نسبه إلى السلالة النبوية الشريفة من ناحية والدته حفيدة سليمان باشا الفرنساوي في مايو **1952**!! وهو ما وصفه النحاس بالمؤسف والمضحك "وإلى الهزل أقرب إلى التعقل".

كذلك الصحافة الدعائية للملك في فترة عهده أسهمت في انهيار هيبة الملك من حيث أرادت مساندته، فهي إما تختلق أخباراً أو توظف أخرى بشكل ساذج على نحو أن الملك اصطاد **344** بطة وسفير الهند بطة واحدة!! أو أن حمامة بيضاء هبطت على عربة جلالته أثناء سير موكبه يوم توليه الحكم عام **1937**، أو أن جمل هرب من المجزر إلى قصر عابدين عام **1944**، فأمر الملك بشرائه وعدم ذبحه وضمه لمزارع أنشاص ليعيش معززاً مكرماً أو أن الملك دخل المطبخ الملكي بسراي القبة ليخرط الملوخية بنفسه بالمخرطة والتي وضعت بعد ذلك بمكان خاص "ذكرى لزيارة المليك الشاب"!! كل هذا كان له مردود سلبي على صورته الشعبية كملك وقائد مفترض أن تشغله مشاكل أمته في فترة شهدت تحديات إقليمية ودولية صعبة، إذا ما قورن ذلك بوالده الملك الصارم فؤاد الذي قلّما نجد له صورة ضاحكة والمرة الوحيدة الذي ارتبط فيها بموقف مضحك كان ما نشرته مجلة "لايف الأمريكية" عام **1949** أن جندياً بنادي اليخت المصري يدعى (محمد محمد إبراهيم)، كان له شارب مفتول كشارب الملك فؤاد تماماً، وهو ما أثار حنق الملك فؤاد عليه! كما أحاط فاروق نفسه بجماعة من

الصحفيين الانتهازيين مثل كريم ثابت والذي حذّره إسماعيل باشا صدقي من أنه يعمل بصحيفة تتقاضى مصروفات سرية، لكن فاروق أصرَّ على تعيينه مستشاراً صحفياً غير ملتفتٍ إلى أن الذي يبيع ضمير قلمه من السهل أن يبيع مولاه وهو ما كان، فكما كتب كريم ثابت عن فاروق "الفاروق والعروبة" جاءت مذكراته بعد الثورة "فاروق كما عرفته" و"عشر سنوات مع فاروق" مسيئة ومتجنية على فاروق في أجزاء كثيرة.

الطريف في الأحاديث ما كشفه فاروق عن سر طلاقه من فريدة والعلاقة بين ذلك وإطلاق لحيته.

فقد طلّق فريدة ثلاث طلقات طلاقاً بائناً لا رجعة فيه، وأنه ربى لحيته حتى يقسم عليها كعادة الشرقيين بألا يعود لها مجدداً وهو يسوق لنا مبرراً يعكس طفولية فاروق وغيرته غير المنطقية؛ فهو يزعم أنه طلقها لأنها لا تحبه وتحب شخصاً متزوجاً رفض أن يتزوجها، وهي اتهامات ربما محلها خيالات فاروق فحسب، فالبرنس وحيد يسري لم يكن على علاقة مع فريدة كما ظن فاروق، كما أن الشائعات حول علاقتها بفنان يرسم البروفيل في الأربعينيات هو (سيمون الويز) كانت إنجليزية الصنع، وربما كان هذا هو السبب في سعي فاروق للحصول على فتوى من الشيخ المراغي تمنعها من الزواج بغيره (على غرار عدم زواج أمهات المؤمنين بعد النبي صلى الله عليه وسلم) ولا سبيل لإنكار واقعة طلب الملك فاروق من الشيخ المراغي إصدار فتوى بأنه لا يجوز لفريدة أن تتزوج من بعده

باعتبارها كانت زوجة ملك مصر استناداً إلى أن الشيخ المراغي توفي عام **1945** وأن طلاق فريدة من فاروق والمتزامن مع طلاق الأميرة فوزية من شاه إيران كان عام **1948**، ذلك أن الواقعة وردت بمذكرات الغريب الحسيني الحارس الخاص لفاروق، ومنطقياً قرار كهذا لم يكن وليد اللحظة، بل بالتأكيد سبقه ترتيبات من فاروق كان أبرزها منع فريدة من الزواج بعده.

الحقيقة أن أحاديث فاروق كانت تلقي بظلال من الشك حول ثقافة الملك الدينية، فهل كان الملك على دراية بالفرق مثلاً بين الطلاق البائن والرجعي وهو يتحدث عن طلاقه من فريدة بالثلاث في مجلس واحد!! إضافة لحديثه عن الخمر، وأنه لا يعاقرها ليس للتحريم الديني لشربها، بل لو كانت حلالاً فالخمر لا يمثل له إغراء!! وحتى وهو يتحدث مدافعاً عن بناته وحقهن في ارتداء ملابس السباحة والشورتات على البحر في منفاه في كابري "حيث تسمح الأعراف"، وفي موضع آخر يتحدث فاروق عن صورة شهيرة لنجيب وهو يصلي ومعه أولاده معتبراً أن الصلاة صلة بين العبد وربه لا ينبغي أن تكون مادة دعائية للصحافة، وأنه رفض صورة مماثلة تحت إلحاح الصحافة الإيطالية وفي هذا الموضع يتحدث فاروق عن أن للمسلم أن يصلي الصلوات الخمس في مواقيتها أو يؤخرها جميعها ليصليها متى سنح الوقت

لذلك، ولا أعلم من أين استقى فاروق هذا الفهم الخاطئ، فالصلاة لوقتها أمر لا مفر منه ولا اعتذار عنه.

كل هذا يجعلنا نبحث في نشأة فاروق الدينية والتي تبدو منعدمة وهو ما أزعم أني وجدته بعد بحث طويل، ففي صحيفة آخر ساعة المصورة العدد **160** عدد التتويج **29** يوليو **1937** وتحت عنوان: "كيف عرفت وأحببت الملك فاروق" للأستاذ الأكبر الشيخ المراغي يقول الشيخ عن أسبابه في ذلك أن فاروق كان "حلو الحديث لطيف المعشر أنيساً في جلسته يأسرك بحديثه لأول مرة تراه فيها، ثم هو ملك دين شديد الغيرة على إسلامه يحب أن يقرأ عن الدين ويتفهم أصوله ويحافظ على واجباته فيه "وعن الدروس التي تلقى على جلالته قال: "لم تكن هناك دروس محددة بالمعنى المفهوم، فلم يكن هناك دروس فقه أو دروس تاريخ أو درس أصول الدين أو درس تفسير للأحاديث، بل أن المواضيع كلها كانت بنت ساعتها" يعني الخلاصة إنها كانت دردشة والنتيجة أمامنا. وعن أبطال التاريخ فالأحب للمليك بحسب الحديث: "عمر بن الخطاب لعدله وحزمه ففاروق يحب العدل والنظام ويكره الظلم والاستبداد". والحقيقة أن فاروق كان شديد التواضع إذ زار الشيخ في المغاغة بالصعيد.. من هنا نخلص أن فاروق لم يتلقَّ أي تعليم ديني سوى دردشات بسيطة من هنا وهناك لا تصلح أن تشكل فكر رجل يحكم بلداً بحجم مصر.

أما عن علاقة فاروق بزوجته ناريمان، فالواضح أنه ظل يراهن حتى اللحظة الأخيرة على وفاء ناريمان له وعدم تخليها عنه تحت أي ظرف ولكن الوقت كان مبكراً لتقرير ذلك وقد خان الملك حدسه هذه المرة فقد طلبت ناريمان الطلاق منه بإيعاز من والدتها السيدة (أصيلة) وأصبح الملك وحيداً بعدما تخلى عنه الجميع.

أما عن نهاية فاروق فأنا أستبعد أي نية لاغتياله، فلم يكن هناك أي قوة عربية أو دولية تراهن على إمكانية عودة فاروق في ظل الشعبية الجارفة لعبد الناصر ليس في مصر وحدها، بل في العالم العربي وأفريقيا ولو كانت النية معقودة على قتله لكان الأفضل أن يكون ذلك مبكراً بدلاً من الانتظار ثلاثة عشر سنة لفعل ذلك، خاصة وأن فاروق في المنفى كان هدفاً سهلاً ويمكن تنفيذه عبر عناصر إيطالية من المافيا أو غيرها وليس عبر شخص مصري.

ربما يكون مريباً تواجد ضابط مصري مثل إبراهيم البغدادي في نفس المطعم الذي يتردد عليه فاروق، لكنه لا يتعدى أن يكون عيناً تراقب فاروق في المنفى ليس أكثر، وأرى أن القدر وحده هو الذي اختار لحظة النهاية لفاروق، فعشاؤه الأخير لم يكن عشاءً طبيعياً، بل عملية حشو للبطن بالطعام الدسم سعياً للموت السريع، فقد أكل وحده دستة من المحار وجراد البحر وشريحتين من لحم العجل مع بطاطس محمرة وكمية رهيبة من الكعك المحشو بالمربى والفواكه. أعطني عقلك، رجل بدين يعاني

من الضغط وارتفاع الكوليسترول يأكل بهذه الشراهة لكل هذه الكميات من الأطعمة وبوجبة واحدة، هل بحاجة لعملية اغتيال أم الانتظار أن يقتله الطعام بشكل طبيعي؟!

بالتأكيد انتظار الطعام حتى يقتله وقد كان، فبعد هذا العشاء المهول شعر فاروق بضيق في التنفس واحمرار في الوجه وتوفي بالمستشفى...

****

المصادر والمراجع

1-موقع المصري اليوم لايت

2-الصفحة الرسمية لموقع الملك فاروق الأول - فاروق مصر على الفيس بوك.

****

قضايا لغتنا الجميلة

مقدمة

يبدو أن قضايا اللغة العربية التي تشغلنا اليوم لم تكن بعيدة عن تفكير أجيال سبقتنا نعدهم قادوا عصوراً ذهبية في الإبداع والانتصار للّغة العربية، ولكن تفحص هذه الحقب يبرز وجهاً مختلفاً لهذه الأجيال الماضية والتي عانت مثلما نعاني اليوم من تعقيدات اللُّغة العربية، وبدلاً من أن تكون وسيلة وأداة لينة في يد كاتبيها وعلى ألسنة متحدثيها أصبحت عبئاً ثقيلاً على غير المتخصصين بقواعدها، وما أقلهم في إجادتها على النحو المأمول، وأصبحنا نعمل لخدمتها ولتوقير قواعدها الكثيرة واستثنائتها التي لا حصر لها...

إن اللُّغات جميعاً مرت بتطورات عدة جعلتها مسألة هينة مما رفعها لتكون لغات ناقلة للعلوم والمعارف بسهولة ويسر كاللّغة الإنجليزية مثلاً فيما بقيت العربية على صورتها الأولى لم يطرأ عليها تعديل سوى إضافات بعض القدامى في العصرين الأموي والعباسي... الحقيقة أنّ الفارق بيننا وبين من سبقنا من أجيال أنهم كانوا يجاهرون بمشكلاتهم مع العربية بشجاعة ويطرحون الحلول بينما نحن نتوارى من مشاكلنا كالنعام سواء بسواء.

لقد كان للمفكرين مشروعات قيمة لتطوير اللغة استعرضنا منها سوياً مشروع تجديد النحو للأستاذ إبراهيم مصطفى في (كتاب على هامش التاريخ والأدب) ونستكمل باقي هذه المشروعات في مبحثنا هذا:

أ-مشروع عبد العزيز باشا فهمي:

عادةً ما تأتي الحلول العملية من داخل اللغات لكن عبد العزيز باشا فهمي اختار حلاً من خارج اللغة ذاتها، وأصرَّ عليه وهو استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وذلك تأثراً بالتجربة التركية حيث أمر (كمال أتاتورك) باستخدام الحروف اللاتينية بديلاً عن العربية في كتابة اللغة التركية وهو ما لاقى امتعاضاً من الأهالي في بداية الأمر، ما لبث وأن تحول إلى إعجاب ودهشة "إذ وصَل الطفل في شهرَين أو ثلاثة إلى قراءة أي متن مكتوب بها قراءة صحيحة" كما أنه أسهل في الطباعة.

عرض عبد العزيز باشا فهمي أسبابه في جلستيّ مجمع اللغة العربية في **24** و**31** يناير **1944** وجمعها في كتابه (الحروف اللاتينية لكتابة العربية) ونوجزها فيما يلي:

1- اللغة العربية من أسباب تأخر الشرقيين لأن "قواعدها عسيرة ورسمها مضلل" وأنّ الصيحات التي توجه لمعلميها في المدارس بالتقصير ليست في محلها والعيب في اللغة التي "ليس في مفرداتها وقواعدها أول يعرف أو آخر يوصف" فقواعد النحو والصرف بالغة الصعوبة والتعقيد والارتباك.

2-الحروف العربية وثنية "بلا نزاع" سواء أكان مصدرها النبطيون في شمال الجزيرة أو اليمنيون في جنوبها بينما "اللاتينية هي لغة النصارى وهم أهل كتاب أقرب إلينا معشر المسلمين من الوثنيين"!!

3-اللغة العربية ليست لغة واحدة، بل هي مجموعة لهجات أهل جزيرة العرب من أكثر من ألف وأربعمائة سنة جمعها أوائل المسلمين وكدسوا مفرداتها جميعاً في المعاجم، وإنّ فاصل زمني كبير بيننا وبين العرب الأولين وعصر النبوة، فقد كانوا أهل فصاحة ينطقون عباراتها بالسجية فلم تكن تمثل لديهم مشكلة. وبالمقارنة باللغات التي تحررت مما يثقلها فهو يصور حالنا "كالبراذين الدبرة المجرحة نجر حمل لغتنا ومن ورائنا سائق غليظ يسومنا صعود الجبل وليس لنا من منجد ولا مغيث".

4- آفة اللغة هي رسم كتابتها فهو "علَّة العِلَل، وأُسُّ الداء، ورأس البلاء" كما يرى أن رسم القرآن الحالي كوسيلة للاحتجاج بمخالفة الإجماع ليس في محله لأنه ليس "مأمورًا ديانةً باحترام رسم القرآن لأنه "غير توقيفيٍّ" ولم يفرض التعبد به وأنّ اللغة العربية لم ينشئها القرآن بل كانت لسان قريش الوثنية وأن المسلمين وضعوا النقاط على حروف القرآن في عهد عبد الملك بن مروان بالمخالفة للإجماع وقتها، وأن أسعد يوم في حياته هو" اليوم الذي يرى فيه كتاب الله مرسوماً رسماً يضبط بذاته كيفية أداء كلماته بلسان العالم والجاهل والمسلم وغير المسلم والعربي والأعجمي أداء صحيحاً لا

يحتمل لحناً ولا تصحيفاً" وأن السبيل لبلوغ هذه الأمنية هي "الحروف اللاتينية بما فيها من حروف الحركات وما يضاف إليها من حروف عربية ذات نغمات لا تؤديها الحروف اللاتينية".

ما نلاحظه في الكتاب غضبات الرجل تجاه الآراء المعارضة له والتي نقلها بكل أمانة وهو أمر يحسب له لكن أطرف غضباته ما سجله عباس العقاد في كتابه (رجال عرفتهم) أن إحدى الصحف نشرت استنكار الأمير محمد علي توفيق ولي عهد المملكة المصرية لدعوته لكتابة العربية بالحروف اللاتينية، فثار عبد العزيز فهمي وتحدث بغضب شديد على مسمع من أعضاء نادي محمد علي والذي كان الأمير رئيسه قائلاً: "أتحسبون أنني لا أحترم الأمير «محمد علي»؟ أتحسبون أنه حين يتكلم عن الكتابة بألفاظه الفصيحة «كخذروف الوليد» يستحق مني غير الاحترام؟ كلا، إنني مطالب باحترام ولي العهد بحكم الدستور!"

ثم خرج من النادي إلى قصر عابدين مسجلاً في دفتر التشريفات وبدون مناسبة تمنياته أن يرزق الله الملك ولي عهد رشيد تقر به عيناه (لاحظ رشيد هذه!!).

هذا لا يمنع أن نطل قليلاً على سيرة الرجل العصامي الذي جمع بين أعباء الوظيفة كمترجمٍ في وزارة الأشغال العمومية ودراسته للحقوق، وكان يجيد الشعر والزجل، لكنه كان يمقت المظاهر والغرور ويبغض رؤية رجل في فمه

سن من ذهب، ومما يقال عنه أنه عيّنَ حماراً بالبريد، كانت تملكه سيدة لا عائل لها حتى تنفق على نفسها من راتب هذا الحمار!!

الحقيقة أن دعوة عبد العزيز باشا فهمي كان يمكن أن تنال العناية والدعم الكافيين لو لم يتطرق للمساس بالقرآن، فالكتب السماوية في كل الملل تبقى على صورتها التي أنزلت بها دون مساس سواء أكان توقيفياً أم لا، ودخول عبد العزيز باشا هذا السجال أضعف دعوته والتي كان من الممكن أن تجد صدى مثلما حدث مع اللغة الكردية التي خرجت من عباءة الحروف العربية إلى رحابة اللاتينية.

ب. مشروع علي الجارم بيك:

تقدم علي الجارم بيك بمشروع لتيسير الكتابة العربية عرض على مؤتمر مجمع اللغة العربية عام **1944**، بالتزامن مع مشروع عبد العزيز باشا فهمي ويتلخص مشروعه في الإبقاء على جوهر الرسم الأصلي مع وضع زوائد أو شكلات جديدة متصلة بالحروف ولاصقة بها (كان العقاد ينعتها بالزعانف) وأن تكتب الكلمات بحسب نطقها لكن المشروع جوبه بموجة من الاعتراضات لأنه يزيد الأمر صعوبة.

ج. مشروع أحمد لطفي السيد:

نظراً لصعوبات اللغة العربية وتعقد قواعدها وعدم قدرة معاجمها القديمة على مجاراة الحداثة فمن الطبيعي أن تخترق حياة الناس ألفاظاً عامية بديلة رغماً عن الفصحى.

وحتى نستطيع أن نضع أيدينا على حجم المشكلة في مجال كترجمة العلوم الحديثة في مطلع القرن الماضي، فلم تكن الفصحى وحدها لتفي باستيعاب المصطلحات الحديثة ولنضرب مثالاً على ذلك بكتاب "الزراعة المصرية الجزء الأول عُني بترتيبه وجمعه المستر فودن سكرتير عام الجمعية الزراعية الخديوية بمصر سابقاً وجناب المستر فلتشر ناظر مدرسة الزراعة بالجيزة سابقاً، وترجمه إلى العربية عبد الحميد فتحي بيك مدير قسم التعليم الزراعي بالأقاليم وألفونسو جريس أفندي مدرس بمدرسة الزراعة العليا ومحمود توفيق أفندي ناظر مدرسة الزراعة المتوسطة بمشتهر، وصححه الشيخ محمد عبد المطلب مدرس بمدرسة القضاء الشرعي وتحت إشراف صاحب السعادة أحمد حشمت باشا ناظر المعارف العمومية (كان مؤسس التعليم التجاري في مصر ومن المبادرين لتطوير التعليم الفني وأول من وجه لوضع علامات الترقيم وأول من سمح بنظام الملحق للراسبين في مادة واحدة) عام **1910**".

لقد نقلت حرفياً ما جاء على غلاف الكتاب لتكون معي عزيزي القارئ على مقربة من حجم الجهد المبذول في الترجمة للعربية: ثلاثة مختصين ومصحح ومع ذلك يقول المؤلفون في مقدمة هذا الكتاب القيّم: أنهم راعوا استخدام اللغة الفصحى في "مفرداته جهد المستطاع" لكن "الحق يقال أن العامية خدمتنا في عملنا هذا خدمة جليلة، فقد كنا إذا سد أمامنا باب

معنى من المعاني أو ضللنا طريق البحث عنه عمدنا إلى لفظه العامي وجعلناه وسيلة إلى المعجمات، وقلّما لم نجده فيها إما بعينه أو بتحريف قليل".

كما ظهرت المعاجم الخاصة بالعامية ومنها "معجم الألفاظ الحديثة" عام **1919** تأليف محمد دياب بيك أحد المفتشين السابقين في نظارة المعارف وأشرف على مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان يرأسها الشيخ محمد عبده وهذا التقديم للرجل نهدف منه أن نفهم أننا أمام رجل تربوي يدرك أهمية تحديث اللغة. ضم المعجم كلمات من مستحدثات العصر في أوائل القرن الماضي ومعانيها منها: "برنجي (الأول)" و"قادين (سيدة)" و"بزرميط" و"بصمجي" و"بنتوفلي (خف)" و"تخت (سرير)" و"فاتورة" و"روزنامة"، لكن أجمل ما قرأت في المعجم كان تقديمه لمعنى "جدع" أي "شاب قوي نشيط" وأنها محرفة عن جذع قال ورقة بن نوفل: "يا ليتني فيها جذع" يتمنى أن يكون شاباً حين تظهر نبوة النبي صلى الله عليه وسلم فينصره نصراً مؤزراً".

نعود لموضوعنا ولأن المسرح يعكس حياة الناس فقد حاول أرباب هذا الفن الخروج من عباءة الفصحى مبكراً؛ فمثلاً في حوار مع (أنطون يزبك) حامل لواء التأليف المسرحي في مصر عام **1926** وكان يكتب بالعامية ولكثرة السؤال عن ذلك أرفق مع رواياته ورقة تشرح الأمر بقوله: "كتب

المؤلف روايته باللغة العامية الدارجة لأنه يعتقد أنها تطور طبيعي للعربية الفصحى وأنه لأمر ما اختارها الملايين من الناس منذ أجيال لتكون لغة التخاطب بينهم يستوي في ذلك عالمهم وجاهلهم"، وأن اللغة العامية الأقرب لدور التمثيل.

كل هذا لم يكن أبداً بمفازة أيضاً عن ذهن المفكرين في هذه العهود فكانت دعوة أحمد لطفي السيد للعامية، ولكن تحت مسمى يغازل الحس الوطني المصري وهو "تمصير اللغة العربية" وكانت الدعوة مبكرة على كل ما سبق وتحديداً عام **1913**، وتلخصت دعوته في النقاط التالية:

1-اللغة العربية تبدو واسعة في المعجم لكن "ضيقة في الاستعمال" مليئة بالمعاني والمسميات القديمة، لكنها فقيرة في المعاني الجديدة وأن لغة الاصطلاحات العلمية قد توقفت عند "أيام النهضة العباسية".

2- الأسماء الأعجمية مثل "الأوتومبيل والبسكليت والجاكيته والبنطلون والجزمة والمودة"، دخلت اللغة بشكل كامل على ألسنة العوام وأن "النحت من اللغة وعلى موازين اللغة" مسميات جديدة لها "لا يستعملها إلا بعض الكتاب"، "من غير أن تدخل في أحاديث العوام ولا في أحاديث الخاصة أنفسهم"، سيعمل على "توسيع مسافة الفرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام وذلك مؤخر للغة البيان والفصاحة، للتقدم من جميع الوجوه".

داعياً إلى التساهل في قبول المسميات الأوربية وإدخالها في الاستعمال الكتابي "كما أدخلها الجمهور في المخاطبة".

3- كان أحمد لطفي السيد من أنصار الفوضى الخلاقة في التطور اللغوي فيرى أنه "لا بأس بالفوضى إذا كانت لازمة لحال التطور وصارفة لنا عن هذا الجمود الذي نحن فيه" ويقول أيضاً: "إنّ الخروج باللغة من جمودها إلى طور جديد لا بد فيه من الفوضى الموصلة إلى الطور الراقي المتفق مع أطماع الأمة عن التقدم في كل شيء إلى الأمام".

4-اقتراحاته لا تمنع من تطور اللغة العربية وفصاحتها مع قصر استعمال الألفاظ التي "لا حاجة لنا بها" في الشعر عند الوزن.

لا يمكن تجاهل أنّ العامية أصبحت واقعاً بالفعل فالويكيبيديا (الموسوعة الحرة) مصدر المعلومات السريع للشباب مثلاً تصدر موضوعاتها بالعامية بالإضافة للفصحى.

في النهاية ما نهدف فيه في هذا المبحث ليس إحياء هذه المحاولات والتي لا أجدها حلولاً عصرية لمشكلات اللغة حالياً؛ فهي حلول خارجة عنها في مجملها وحل المشكلات لابد وأن يكون من داخلها وتسهيل قواعد النحو والإملاء والاستغناء عن غير الضروري منها أهون من التحول للعامية بالكامل أو الاستعاضة عنها بحروف أجنبية ويمكن الرجوع للمزيد حول ذلك في كتابي "على مقهى الأربعين".

الشعب الآخر

تبدو أسباب ثورة عام **1919** متباينة فليس الكل سواء في اتجاههم نحوها فالتحرر والاستقلال كمطلب شعبي وديني هو مسلك الأفندية من خريجي الجامعات والمدارس وأرباب السياسة وأصحاب العمائم من خريجي المدارس الشرعية والأزهر.

على الصعيد الشعبي تباينت المآرب أيضاً؛ فالفقر كان مبعث بعضهم ويمكن أن نلمح ما فعله الفقر بالطبقات الدنيا من قضية (ريا وسكينة) فالحرب العالمية الأولى والتي دارت رحاها من عام **1914** وحتى عام **1918** أكلت الأخضر واليابس، وأثرت بشدة على سوق العمل المصري وما أن التقط المصريون الأنفاس حتى باغتتهم جائحة الأنفلونزا الإسبانية عام **1918** والإجراءات الاحترازية التي رافقتها.

على الجانب الآخر وكشأن كل الثورات في العالم هناك طبقات من أهل الثراء ومن أهل اللامبالاة أيضاً الذين لا تمثل لهم الثورات شيئاً، فهم ليسوا أرباب سياسة وتواجد الإنجليز في مصر لا يمثل لهم عائقاً، بالعكس يمثل لهم موفورَ السعادة، فالمظاهر الحضارية الأوروبية أتت إليهم لعقر دارهم وليسوا بحاجة إلى الارتحال إليها، فكانت المظاهرات تجوب الشوارع يضحي

أفرادها بأنفسهم وهم يجوبون معها الشوارع أيضاً، ولكن بحثاً عن المواعدة!!

أجل كما سمعت بحثاً عن اللقاءات الغرامية هذا هو الشعب الآخر الذي يسكن بين جنباتنا بقاموسه الخاص وبحياته ومفرداته المختلفة، ولأن التاريخ المصري حديثه كقديمه في أشياء كثيرة، فقد رصد لنا الأُسطى الحوذي حنفي أبو محمود ملامح هذه الطبقات في مذكراته التي حملت عنوان (مذكرات عربجي) نشرت على حلقات في مجلة (الكشكول) التي أسسها (سليمان فوزي) لانتقاد حزب الوفد ورموزه وقد جمعت بعد ذلك في كتاب قدم له الأستاذ (فكري بك أباظة) المحامي الشهير عام **1921**..

الطريف والذي كشفته المكتبة المركزية لجامعة الإسكندرية من أن صاحب الكتاب هو الممثل الساخر (سليمان نجيب) أول مصري يشغل منصب مدير دار الأوبرا المصرية، وذلك بعد أن أعلنت المكتبة امتلاكها لنسخة من الكتاب بخط سليمان نجيب (بحسب بوابة أخبار اليوم).

ما يدعونني للدهشة هو لماذا أخفى سليمان نجيب نفسه في هذه المذكرات؟! واختار اسماً مستعاراً، خاصة أن بشارة الأستاذ فكري أباظة والتي حملها تقديمه للكتاب من أن الكتاب يكشف الانتهازيين والآكلين على كل الموائد، وهو الأمر الذي لم أجد له أثراً كبيراً بالكتاب سوى في موضعٍ واحدٍ يتحدث فيه عن المصادفة التي جمعته "بالأستاذ المقلفط تشريفاتي

استقبالات معالي الرئيس وسكرتير لجنة استقبال دولة الرئيس وخطيب وفود دولة الرئيس"، وأنه وصل لمنصبه باللعب على كل الحبال والتملق للجميع، "فلا رئيس إلا سعد"، ثم "عدلي فوق الجميع"، ثم "ولا حياة إلا لثروت"؛ أي بلا رئيس إلا ما تقتضيه الأحوال والحقيقة أن هذا الموقف يبدو هزيلاً ولا يحتاج إلى مثل هذا التخفي في زمن كان عماده الليبرالية وكان يكال لسعد ورفاقه من النقد ما يفوق هذا بكثير..

استغرب هذا خاصة وأنه كان يمارس النقد وإن كان قليلاً عبر الصحف ومن هذا قصته: "مات" والتي نشرها في مجلة الاثنين والدنيا في **25** يونيو **1945**، ويتحدث فيها عن الإهمال الطبي وهي قضية شائكة لا تقل خطورة عما تناوله في مذكرات عربجي من أمور وملخص القصة أن المهندس الزراعي (فتحي توفيق) والمنتدب من وزارة الزراعة للعمل كمراقب في المعرض الزراعي الصناعي الذي كان قائماً بسراي الجمعية الزراعية دهسته سيارة مسرعة وهو راكب موتوسيكله، وحمل للقصر العيني بكسر في ساقه اليمنى وأجريت له "أكثر من عشر عمليات أغلبها بدون البنج والمسكنات" ليصاب خلالها بالحمرة، ثم التسمم الدموي حتى وهن النبض وسكن القلب وظن الجميع أنه مات، لكن مس أندرسون الممرضة العجوز تكتشف أنه لازال على قيد الحياة، ومرت أيام وغذاؤه نقط الشمبانيا!! وبعض الحقن.. وفي النهاية يستيقظ المريض ليسألها عن

الساعة، وقد ظن أنه نام **24** ساعة فقط، فتطمئنه الممرضة قائلة: "أربع وعشرون ساعة! لقد نمت أسبوعاً وأربعاً وعشرين ساعة، هس لا تتكلم، اِهدأ واسترِح فقد مر الخطر".

كما كان ذا خلفية أسرية أدبية، ومارس الكتابة المسرحية، ففي حديث لمجلة الكواكب عام **1932** تحدث سليمان نجيب أن والده كان من كبار أدباء البلاد وكان "ينافس إسماعيل باشا صبري وأمير الشعراء في نظم المواويل والموشحات والأدوار"، كما كشف أنه لم يكمل دراسته للحقوق والتحق بفرقة الأستاذ عبد الرحمن رشدي التي تألفت أثناء الحرب العالمية، ولم يكن دوره ممثلاً فقط بل "رأساً مفكراً ووسيلة ناجعة من وسائل النجاح المبني على النشاط وسعة الحيلة" وأنه أَلّفَ وترجم روايات مسرحية للفرق المصرية منها اقتباس عن الرواية الإنجليزية "**nothing but the truth**" مع إدخال موضوعات مثل مشروعات مناجم الزيت (مشروع إسماعيل صدقي) و"شخصيات حية مثل الدكتور محجوب ثابت بذقنه وشكله المحبوب" (تحدثنا عنه في كتاب على هامش التاريخ والأدب) وأنه تقاضى من زكي عكاشة شيكاً ب **32** جنيهاً وحملت الرواية اسم (**24** ساعة) لوصفي عمر وسليمان نجيب.

على أية حال وأياً كانت دوافع الرجل، فقد رصد لنا صوراً وإن كانت ليست بجديدة إلا أنها معضدة لما شاهدناه في روايات نجيب محفوظ عن ثورة

1919، مثل شخصية ياسين الابن الأكبر للسيد عبد الجواد والذي لا يكف عن التحرش اللفظي بالنساء فيورد سليمان نجيب على غرار هذا النموذج الشاطر محمد والذي ينادي في إحدى المظاهرات وسط الهاتفين بصوتٍ عالٍ متحدثاً مع ست الحسن والجمال بصوت هامس: ليحيا الاستقلال التام، عاوز أكلمك، عاوز أشوفك = لتحيا السيدة المصرية، كلمني في التلفون. ليحيا الوفد المصري، نمرة التليفون كام؟ ثم يكمل ويظهر أن الوالدة انتبهت أنّ هناك مظاهرة أخرى بجانبها؛ "فانقطع تيار الحديث، ثم سمعت الآنسة تقول بكل بساطة لشقيقتها: الله! شوفي يا أبلة، نمرة العربجي زي نمرة تليفوننا بس بدال الخمسة ثلاثة. ويضيف العربجي: "بهذه الطريقة نظر صاحبنا إلى نمرتي، وأبدل الخمسة ثلاثة بالطبع، وانتهت مهمته بعد أن كتب النمرة... ونظر إليّ بعينه الجميلة السوداء كأنه يشكرني بمناسبة نمرتي". كما يورد صفعة المرأة المنقبة بيدها البيضاء على خد البيه المحلوق الناعم المنتوف لتحرشه اللفظي بها قائلة: "حقيقة عديم التربية أنت مالكش أم ولا أخوات أما طاعون إيه السفالة دي!".

وحتى نتخيل لغة التحرش اللفظي بالنساء التي استوجبت عقاب البيه على هذا الشكل، يمكننا أن نعود إلى تصريح لمقدم هذه المذكرات أستاذ (فكري أباظة)، "أن الشاب الصفيق من هؤلاء يتعمد الوقوف على رصيف الترام

بالقرب من المكان المخصص لركوب السيدات، وعندما يجد سيدة تقف بمفردها يقترب منها بمنتهى البجاحة ويقول لها دون سابق معرفة: بونسوار يا هانم" (لقد ذكرني بالمعاكسات في جيلي في غرف الشات في زماننا على ياهو والهوت ميل وبادرتها مرحباً!!).

تحدث أيضاً فناننا في مذكراته عن أمر طريف فكما علمنا عن هذا الزمان انتشار القمار ولنا في زعيم الثورة ذاته سعد باشا زغلول المثل فالمذكرات تعرض لنا في المقابل قمار النساء بمصروف البيت في التيرو (مكان للعب القمار) وفي نهار رمضان.. تصور الزمن الجميل!!

لا تنظر يا عزيزي القارئ للقمار على أنه مجرد لعبة، بل كان في هذه الأزمنة كارثة الكوارث ومرض من الأمراض الدافعة لارتكاب الجرائم فمثلاً نشرت اللطائف المصورة في العدد **669** يوم الاثنين **5** ديسمبر **1927** خبر إقدام عبد العزيز عاشور تاجر الغلال بالجيزة على "ذبح ابنتيه بقسوة وهمجية "، وذلك بسبب القمار الذي بدد ثروته وممتلكات زوجته.

وينتقل بنا سليمان نجيب إلى محطة أخرى وهي تجارة الكوكو (دلع الكوكايين) والذي يصفه "بالبارود الأبيض الذي يهاجم أدمغة الشباب في هذا البلد المحتاج إلى أبنائه، فيودي بهم ويقذفهم إلى دار المجانين حيث الفناء الأبدي". وأن مسألة الحصول عليه كانت مسألة مستعصية في بعض الأونة مما رفع من سعره فيقول متهكماً: "وكم حدثت أزمات «كالأزمات

الوزارية مثلاً) يكون العثور فيها على جرام أصعب من وجود رئيس وزارة، فنظل نبحث أنا ومن معي من الشباب الناهض، نطرق بيوتاً نام سكانها وغفا أهلها، فيكون ثمن الجرام مضاعفاً، إذ يضيف إليه حضرة البائع المحترم مبلغاً بسيطاً هو بدل إقلاق الراحة".

طبعاً لا تستعجب أخي القارئ؛ ففنان الشعب سيد درويش كان من مدمنيه وقد غنى أغنية له ويقال: إنّ موته كان بجرعة زائدة منه. تقول كلمات الأغنية وهي من وضع بديع خيري وتصور حال مدمن الكوكايين وعدم مبالاته بأضراره وثراء بائعيه الذين باعوا ضمائرهم معه "اشمعنى يا أخ.. الكوكايين كخ.. ده أكل المخ.. هلكنا اعمله علا غيرنا.. رايح لي تطخ.. وجاي تبخ.. شطب.. هو أنت شريكنا حتى في مناخيرنا.. أيش عرفك أنت يا دونكي.. المدعو أه دي بخنفتها.. بتكلفني كوكايين كام في ليلتها.. ياما راح أناطير جواها.. من الأزايز إياها.. صحة ما صحة.. ها ها ها.. راحت مورتوم.

العايز أهبل يا خواجه زنفل.. يروح أبو زعبل.. وأبوها علشان تنشيأه.. ولا خمسة جرام ولا عشرة جرام بيأضو أخوك.. د أنا أشطب على ميت فابريأه.. مش غايته الجيب ها ينفض.. إيه يعني.. المخ يأكسد.. إيه يعني.. نشمه أبيض.. يطلع أسود.. ياما حكما وأجزجية.. ياما حنوتية وطربية.. بأو أغنية.. على حس الكوكانجية".

نعود للكتاب والذي يجمع بين الفصحى والعامية والجميل فيه استخدام قاموس عصره من المصطلحات كالزبون الفينو (الجيد جداً) والسقع والنص لبة والكلام السجوري (المؤدب) وكلمات التدليل بين المحبين توتو وسوسو وحبوب وقطقوطة..

نختتم جولتنا بقبس من سيرة سليمان نجيب كاتب المذكرات والجدير بالذكر أن خاله هو أحمد زيور باشا وكان غير متزوج خشية أن ينجب أطفالاً يعانون الفقر، كما كان دمث الخلق، فهو يستأذن جاره في رسالة شهيرة (نوردها على سبيل الاستئناس بدون مصدر غير شهرتها) قائلاً: "جاري العزيز سالم بيك القرنفلي.. تحية طيبة وبعد، نظراً للقيام بعمل مضيفة في حديقة السرايا، نخطركم بأنه سيكون هناك ضوضاء بدءاً من الساعة الثانية عشر ظهراً حتى الواحدة والنصف، نأسف لإزعاجكم، ولكنها لن تستغرق أكثر من ٣ أيام. وبعد الانتهاء من الإصلاحات، نود أن ندعوكم لحفل شواء في الحديقة الجمعة القادمة بأمر الله تعالى، للاحتفال بانتهاء تصوير فيلم "الزوجة السابعة" مع كاست الفيلم محمد فوزي والشابة ماري كويني والصديق العزيز إسماعيل ياسين، وهي فرصة لطيفة للّقاء، وخاصة والطقس عليل هذه الأيام... نشكركم على تفهمكم.. والسلام ختام".

لا أنكر أني من محبي هذا الرجل ومن المعجبين بشخصيته الجذابة لكن قبوله بدور حسونة أفندي في فيلم الآنسة حنفي عام **1954** وعبارته

الشهيرة طوال الفيلم: (آه لو كنت أخدت الوصل) يقصد رتبة البكوية التي تقدم لها ودفع مالاً نظيرها وضاعت عليه بقيام ثورة **1952**.. بالطبع لا يخفى القصد من ذلك للإساءة للعهد الملكي وهو الأمر الذي كنا ننتظر من فناننا الفيلسوف أن يكون موقفه منه نبيلاً، فلو كانت الألقاب في العهد الملكي تباع وتشترى فلمَ قبلها إذاً؟! وهو الذي يرفض الفساد والإفساد في زمنه عبر كتاباته ومنها مذكرات عربجي!

****

السلطان حسين كامل المعلوم والمجهول

السلطان بين العصا والجزرة

بعد انطلاق شرارة الحرب العالمية الأولى عام **1914** ودخول تركيا في معسكر المحور، كانت مصر محط أنظار الإمبراطورية البريطانية لضرورة تأمين هذه الجبهة؛ فأجبرت بريطانيا مصر على توقيع اتفاقية المشاركة في الحرب العالمية الأولى رغماً عن رغبة رئيس وزرائها حسين رشدي باشا الذي كان مؤثراً للحياد في هذه الحرب التي لا ناقة لمصر فيها ولا جمل، لكن مصر كانت دولة محتلة آنذاك لا تملك من إرادتها شيئاً، لكن هذا الإجراء لم يكن كافياً لضمان وضع مصر، فأقدمت بريطانيا على عزل الخديوي عباس حلمي الثاني الموالي للباب العالي، والذي كان متواجداً بتركيا وأرسلت إليه بعدم العودة..

كانت مسألة ضم مصر للإمبراطورية البريطانية دون حاكم مسألة قد تثير حفيظة المصريين مع رفض أبناء الأسرة العلوية خلافة عباس حلمي الثاني إلى أن استطاعت بريطانيا إقناع الأمير حسين كامل عم عباس حلمي الثاني بتولي حكم مصر في ظل الحماية البريطانية..

عوامل كثيرة كان يخشى منها حسين كامل أولها ماذا لو كسبت تركيا الحرب؟ لكنه خشي من عاقبة ضياع الحكم من يديّ أسرة محمد علي باشا

مع تلويح الإنجليز بإمكانية تولي آغاخان زعيم الطائفة الإسماعيلية بالهند لحكم مصر. ثمة أمور أسرية كانت تدفع حسين كامل للتردد ومنها زوجته ملك هانم التي كانت تدين بالولاء لأم عباس باعتبارها كانت جاريتها في السابق وأعتقتها كما أن ابنه الأمير كمال الدين كان متزوجاً من شقيقة الخديوي السابق عباس، لكن حسين كامل حسم أمره بأن السعي نحو جعل وراثة العرش في أنجاله أمر يستحق المغامرة وهي الضمانة التي لم تعطها بريطانيا له في البداية.

لا نستطيع أن نغفل أن السلطان حسين كامل كان يضمر العداء لتركيا ويعتبرهم السبب الأساسي في دخول الإنجليز لمصر، وهو ما يتضح من مذكرات شيخ الأزهر (محمد الأحمدي بن إبراهيم الظواهري) والذي تحدث عن مائدة سلطانية جمعته وكان لايزال شيخ معهد طنطا مع شيخ الأزهر سليم البشرى والسلطان حسين كامل في رمضان، ودار الحوار حول اندهاش السلطان من علاقة المصريين بالأتراك، وهنا قطع الشيخ الظواهري صمت باقي المشايخ بالقول: إن المصريين يا مولاي معذورون في عدم معاداة الأتراك فهم حيرى بين صديق ووالد، فأما الصديق فهو إنجلترا وأما الوالد فهو تركيا، ولو زاد الشيخ على صمتهم صمته لكان أفضل وقاراً وأحسن قيلاً. هنا غضب السلطان متسائلاً عمّن أدخل الإنجليز إلى مصر؟! قاصداً تركيا.

الحقيقة أنّ علاقة المصريين بالأتراك علاقة كانت قائمة على مسألة الولاء لمقام الخلافة وإزاحة هذا الولاء بين يوم وليلة ليس بالأمر الهين وهو ما أدركه السلطان، لذلك فقد خشي من حجب الدعاء للخليفة على المنابر وهو التقليد المعمول به منذ الفتح العثماني، وهو ما قد يؤدي لتهييج الرأي العام وفي نفس الوقت لا يستطيع إبقاءه ويغضب بريطانيا وهي في حالة حرب مع تركيا، وهنا تحدثنا مذكرات الشيخ الظواهري أن رئيس الوزراء حسين رشدي باشا استدعاه لبحث هذه المسألة فأشار عليه بإبقاء الدعاء للخليفة مع عدم ذكر اسمه وأن يكون الدعاء له بالتوفيق لا النصر!! وهو الأمر الذي استحسنه رشدي باشا ومضى في تنفيذه.

خشية السلطان من الغضب البريطاني وردة أفعاله المبالغ فيها كانت واضحة مع إعلان بريطانيا فرض الأحكام العرفية في مصر عام **1915**، مما جعل المعارضين في مصر رهن الاعتقال ومن الحوادث التي تبرز ردود الأفعال المبالغ فيها، ما قصه علينا الشيخ الظواهري في مذكراته أيضاً من أن إلقاء بعض طلبة المعهد الجديد بطنطا لأطراف الجزر وبقاياه أثناء الفسحة على جنازة رجل مسيحي يوناني أشعلت فتيل فتنة كبيرة، فقد رفع رجال الدين الروم بأمر الحادثة إلى السلطات العسكرية الإنجليزية والتي رأته بمثابة سخط على الأحكام العرفية في البلاد وأصرت على جلد الطلاب وهو ما وجد تعضيداً من الحكومة المصرية والسلطان ويحكي الشيخ أنه

شرح للفريق إبراهيم فتحي باشا مدير الغربية حقيقة الأمر وبساطته، وهو ما رفعه بدوره لرئيس الوزراء رشدي باشا.

على الجانب الآخر ضاق الشعب ذرعاً بذلك، فنجد امتناع طلبة كلية الحقوق عن لقاء السلطان وفي عام **1915** قبض على أحد المارة لعلو صوته بالقول: "يا مسهل يارب" على مقربة من موكب السلطان مما فسر أنه رغبة من الرجل بالخلاص من السلطان فقبض عليه بتهمة العيب في حق أفندينا.

ومن طرائف عام **1915**، أن رئيس الوزراء حسين رشدي باشا كان قد أصدر قراراً بمنع تصدير "المواد والمحصولات الغذائية" في **2** أغسطس **1914** لكنه وبتاريخ **5** يناير **1915** استثنى من ذلك نوع الحلوى المعروف "بالكراملا" والذي يجوز من الآن فصاعداً تصديره بلا شرط ولا قيد ونشر هذا الخبر الرهيب في الوقائع المصرية!!

كل هذا لا يمنع أن للسلطان وجهاً آخر أكثر عطفاً وتواضعاً، ولكن مع محيطيه.

السلطان والنجفة

وجد السلطان يوماً أن النور ضئيل في أحد دهاليز قصر عابدين فأمر محمود شكري باشا ناظر الخاصة السلطانية بإحضار نجفة، فطلب الأخير من كبير مهندسي السرايات السلطانية "المسيو مركوريان" تحقيق الأمر والذي

بدوره طلب من أمين المخزن حسن أفندي فتح مخزنه للبحث عن نجفة للسلطان، فرفض حسن أفندي محافظاً على عهدته رغم كل سبل التهديد والوعيد، فلما بلغ ذلك السلطان استدعاه وسأله عن سبب امتناعه فرد حسن أفندي: "لا أستطيع أن أخون الأمانة بإعطائه (يقصد مفتاح المخزن) إلى شخص غيري أما إذا طلبتموه مني عظمتكم شخصياً فإني أنزل على إرادتكم وأعطيكم إياه"، فأعجب به السلطان وأمر بزيادة راتبه من سبعة جنيهات لخمسة عشر جنيهاً لإخلاصه وحرصه على عهدته.
وحينما مات حسن أفندي في حياة السلطان أمر بعشرين جنيهاً تصرف لأرملته وأولاده... هذا النوع من القصص التاريخي صح أم لم يصح ينبغي أن نستفيد منه في تعظيم دور الأمانة في حياتنا والحرص عليها ومقابلتها بالشكر والتقدير من جانب المسؤولين.

السلطان والبصارة

من جميل ما يروى عن السلطان حسين كامل، أنه سمع أحد تشريفاته يبدي ملله من ألوان الطعام الذي يقدم واشتهاؤه لطبق بصارة.
فما كان من السلطان إلا أن أمر بتهيئة أكلة بصارة لموظفيه في المساء وبينما صاحبنا التشريفاتي يعرض على السلطان بعض الأوراق بشره السلطان ضاحكاً: "ستأكلون غداً إن شاء الله طبق بصارة على كيفكم"، فارتبك التشريفاتي، أما السلطان فأغرق في الضحك.

وهنا ملمح لما يجب أن يكون عليه المسؤول من البساطة والرفق وهو جوهر تقوية وشائج العمل ونجاح أي فكر مؤسسي.

الوريث

حلم السلطان حسين كامل الذي قبل من أجله كل هذه التضحيات سرعان ما تبدد بعدما تنازل ابنه الأمير (كمال الدين حسين) عن خلافة والده وقد جاء في خطابه لوالده في **8** أكتوبر **1917** أنه "مقتنع كل الاقتناع بأن بقائي على حالتي الآن يمكنني من خدمة بلادي بأكثر مما يمكن أن أخدمها به في حالة أخرى".

وقد ذهب المؤرخون في بواعث الأمير في ذلك مذاهب شتى، فمنهم من رأي أن ذلك لرفض الأمير لاستمرار الحماية البريطانية وهو أمر لا أعتقد صحته، فقد كان باستطاعته إدارة المفاوضات مع إنجلترا لرفع الحماية كما فعل فؤاد ومنهم من رأى أنّ الأمير تنازل من أجل قصة حب جمعته بفتاة فرنسية تدعى (فيال ديمنييه) تزوجها وأنجب منها سراً، ورفض الملك فؤاد الاعتراف بهذه الزيجة ولا أرى وجاهة في هذا الأمر فالأمير ليس بحاجة للزواج السري، فقد سبقه محمد علي باشا وعباس حلمي الثاني في الاقتران الرسمي بأجنبيات، ولكنه ربما كان لولع البعض بقصة تنازل إدوارد الثامن ملك بريطانيا حتى يتزوج من المطلقة الأمريكية (واليس سمبسون) ومحاولة النسج على منوالها من حياة القصور المصرية، والصواب في وجهة

نظري أن تنازل الأمير كان راجعاً لسماته الشخصية وولعه بالصوفية وحياة الدراويش والزهد، ولعدم إنجابه أطفالاً وقد شاركته زوجته الأميرة (نعمت الله) هذه الحياة الزاهدة.. ويظهر اهتمامه جلياً بالتصوف في تبرعه لتجديد تكية البكتاشية (إحدى الطرق الصوفية الألبانية وقد رحلت بعد ثورة **1952**) وضريح الشيخ عبد الله بكتاش المعروف باسم ضريح البابا عبد الله المغاوري الأرنؤوطي وفي وصيته بالدفن بالقرب من كهف البكتاشية المقدس على جبل المقطم.

****

مصر القديمة

حينما تصديت لمذكرات عميد الاحتلال اللورد كرومر والتي حملت عنوان مصر الحديثة في كتابي (على هامش التاريخ والأدب) كان ذلك من وحي النقد العلمي والمنطقي والدراسات التاريخية لكن لم أكن قد اطلعت على كتاب (رسائل مصري لسياسي إنجليزي كبير سنة **1905**) والذي يرصد وبجلاء الواقع المعيشي للمصريين والذي يفند بواقعية حقيقة ما خطه كرومر ودافع عنه والواقع دائماً ما يكون أصدق وسيلة لكشف الحقيقة.

يتكون كتاب (رسائل مصري لسياسي إنجليزي كبير سنة **1905**) من أربع عشرة رسالة وطبقاً لغلافه فالرسائل كتبها كاتب مصري (لم يذكر اسمه) في شكل خطابات لصديقه الإنجليزي (لم يذكر اسمه أيضاً)، وقد عثر عليها المستر جون روبرتسون العضو الحر في البرلمان الإنجليزي ونشرها مع مقدمة بقلمه.

كاتب الرسائل بحسب ما جاء بالرسائل زار إنكلترا مرتين وأمضى زمناً قصيراً بها، وقوبل بالحفاوة والكرم خاصة من أعضاء مجلس العموم البريطاني وأنه ينتمي إلى الحزب الوطني مع اعترافه بأنه لا يوجد حزب في مصر بالمعنى الحقيقي كما في أوروبا، ويتضح من تقديم روبرتسون وما جاء بالرسائل أن كاتبها المجهول يختلف عن مؤسس الحزب مصطفى كامل في

سرعة التحول للحياة النيابية والحكم الذاتي، بل يذهب إلى ما ذهب إليه جملة الساسة البريطانيين في عدم جاهزية مصر للاستقلال وضرورة بقاء الإنجليز جنباً إلى جنب الوطنيين في إدارة شؤون بلادهم.

يبدأ كاتب الرسائل بالسؤال عما يبديه المصريون في عدم إظهار الحمد وتوجيه الشكر أو الاحتفاء مطلقاً بالمنافع التي قدمها إليهم الإنجليز، ويرد على هذه المسألة بأنّ الحكام الإنجليز جرحوا شعور نظرائهم المصريين ولم يعاملوهم "معاملة الصديق الودود" أو يبثوا فيهم "روح الاستقلال الذاتي " بل أخذوا يتحكمون في شؤون المصريين "تحكم الظافر"، وأنّ مصر بلادٌ مغلوبة على أمرها وبدلاً من حسم الشقاق المنبجس عن استعلاء جنس على آخر "جسموا هذا الشقاق واطالوا مداه".

يوافق روبرتسون في مقدمته هذا الطرح وأن مسائل مثل تحرير الفلاح المصري من العمل الإجباري، ومنع الكرباج في تحصيل الضرائب ليست من الأمور التي تستوجب الشكر، بل هي واجب أدبي للسلطة البريطانية معتبراً ذلك من قبيل "الرقي التافه".

يواجه صاحب الرسائل الإنجليز بحقيقة أسباب احتلالهم لمصر، وذلك لوقوعها في الطريق إلى الهند واحتكار المرور في "ترعة السويس" وأن ثورة عرابي كانت ذريعة استغلتها انكلترا لاحتلال البلاد بقوة السلاح دون دعوة منها وتحت ستار إرجاع السلطة للخديوي وهم ما لم يحدث، بل إن سلطة الخديوي والنظار صارت مقيدة بمشيئة المستشارين الإنكليز

يقبضون مرتبات باهظة مقابل خدمات قليلة تحت ذرائع مثل "إعادة النظام الداخلي ومنع الاعتداء الخارجي"، حملت الخزانة المصرية نفقة سنوية وصلت لمائة وخمسين ألف جنيه، وبالتالي فالإنجليز جنوا منافع أكثر مما قدموا وقد أصبحت البلاد باباً واسعاً لمصنوعاتهم ومشروعاتهم الهندسية والزراعية وملكوا امتيازات المصارف والمناجم والسكك الحديدية منهياً حديثه بالتساؤل: " أليس الأولى أن تكونوا أنتم الشاكرين أيها الإنكليز؟"

يرصد كاتب الرسائل العديد من السلبيات في زمن الاحتلال فالقاهرة أقل نوراً من جميع مدن العالم؛ لأنّ شركة واحدة احتكرت إنارة شوارع المدينة وأنّ الاحتكار كان نقطة سلبية لدى شركة مياة القاهرة مع انقطاع المياه خاصة في الأيام كثيرة الحر وبطء تدفقها.

كما يستهجن إزالة الأشجار من شارع القصر العيني واصفاً ذلك بعملٍ جنوني وجريمة فظيعة، كما يلفت النظر إلى القصور في الوقاية من الحريق فبناية واحدة للمطافئ مع نقص المضخات الكثيرة وسلالم الحريق العالية لا تفي باحتياجات مدينة القاهرة وتعداد سكانها سبعمائة ألف نفس (رحم الله الكاتب لو عاش بيننا اليوم لوجد أن هذا العدد في أتوبيسات النقل العام يومياً).

يعترف جون روبرتسون في مقدمته بحجم الإخفاق الإنجليزي في تأمين حياة المصريين، فلا يمر أسبوع حتى تنهدم في مصر أو الإسكندرية "بناية

واهية" وأنّ مصر "محرومة من المجاري" ومن مجلس بلدي خاص بها، والحقيقة أنّ الأمر الجديد بالنسبة لي والذي فوجئت به بالرسائل أن **17**٪ فقط من شوارع القاهرة هو ما تم إصلاحه ورصفه في هذا الزمان وأن من الأرصفة "إذا أمطرت السماء لبثت فيها المياه أسابيع كثيرة والعربات تخوض الوحل بعجلاتها فتملأ الهواء ببواعث الموت المتصاعدة من الأبخرة العفنة حيث يعيش الفقراء" وهي المشكلة القابعة حتى يومنا هذا.

من القضايا الرئيسة التي تناولتها الرسائل كانت زيادة الجرائم بشكل مطرد وزيادة تعاطي المسكرات، مما يعكس درجة الانحطاط الأدبي ويعلل هذه الزيادة في الجرائم بضعف نظارة الحقانية حيث حصر الوظائف بها في أيدي الإنجليز، وهم أصحاب السلطة التامة والنفوذ مقارنة بالمصريين على الرغم من الدفع بصغار السن وغير الأكفاء من القضاة الإنجليز، ومنهم من يعمل بمحكمة الاستئناف ولم يمارس وظيفته من قبل في محكمة ابتدائية علاوة على عدم إلمامهم باللغة العربية وهي اللغة المستعملة في "التحقيق الكتابي والشفهي وفي مرافعة المحامين وفي جميع إجراءات المحاكم عن بكرة أبيها".

وإنّ الحل في الجمع بين القضاة المصريين والأوروبيين بما يحقق الفوائد المتبادلة، فالمصري "تحت تأثير ونفوذ رجال ثقفت عقولهم وهذبت أخلاقهم"

والأوروبي يستعين بما لدى المصري من الصبر والذكاء والخبرة في فهم الأقوال والأسباب الباعثة على كل عمل وما يؤثر في شهادة الشهود.

يشير الكاتب إلى نقطةٍ هامةٍ لا زلنا نعيشها إلى اليوم من أنّ النظام التشريعي في مصر نظام صناعي معقد وزائد، وأنّها تأتي عسيرة على فهم الذين وضعت من أجلهم وغير متسقة مع عاداتهم ومعارفهم لذا فهو "أقل مشروعات الإدارة الإنجليزية نجاحاً".

ينتقد كاتب الرسائل السياسة التي أعلنها (كرومر) عام **1904** من توجيه أموال الجمعيات الدينية لمساعدة الفقراء فما من حكومة منظمة تعتمد في إغاثة الفقراء على الإحسان ويعلل ذلك بأسباب منطقية منها قلة موارد التبرعات وعدم انتظامها في أوقاتها ولكونها واجباً أدبياً يجوز عمله وإهماله وغير محدد المبالغ والمجال والتوزيع ضارباً مثلاً بالجمعية الخيرية الإسلامية والتي بلغ إحسانها **250** جنيه مصري بالسنة، وهو قطرة في بحر الحاجة المنتشرة بالبلاد.

بالطبع الكاتب لو نظر للتشريع الإسلامي الخاص بالزكاة ومصارفها ووجوب تطبيقه بالبلاد لكفاه كل هذا..

كان زمن كتابة هذه الرسائل بعنفوان عصر الخديوي عباس حلمي الثاني والذي تحدثت عن شخصيته بشيء من الإسهاب في كتابي (حكايات المحروسة)، وهو عصر التشييد والإنشاء والمشروعات العملاقة كخزان

أسوان أكبر سد في العالم، وإنشاء متحف الفن الإسلامي وتبني مشروع المدينة الصحراوية الجديدة (مصر الجديدة) التي دعا لها البارون أمبيبان وغيرها في مقابل هذه المشروعات العملاقة، كان إهمال الأمور الصحية وهنا يشدد كاتب الرسائل على أهمية أن يعلو الاهتمام بالإنسان على قيمة الحجر و"أن إنفاق الأموال على الحاجات الضرورية كالأمور الصحية التي طالما أهملوها واعتبروها مما لا يليق الاعتداد به أولى من إنفاق تلك الأموال على أمور كمالية" "وأن السعي لهذه الكماليات كمن يقدم لأمته حجراً بدلاً من الخبز".

وينقل لنا كاتب الرسائل صور حية من حياة الفقراء من المصريين التعساء والقصور الحكومي تجاههم فالشوارع مليئة بالشحاذين وذوي الحاجات والجائعين الذين يزاحمون الكلاب الضالة على فضلات الطعام وإذا كان المصري "جائعاً لا منزل يأوي إليه ولا لباس يقيه شدة البرد "فالحكومة لا تغيثه ولو أنهكه المرض وصار قعيداً وعاجزاً عن تحصيل رزقه". لكن تهتم الحكومة بأمره إذا ارتكب ذنباً؛ فهي ترسله إلى الإصلاحية متى توافر مكان له أو السجن إن كان بالغاً.

كما يرسم لنا صورة عن طبيعة الأمراض المنتشرة في مصر حيث زاد معدل الوفيات بداء الالتهاب المعدي والحصبة بين الأطفال عام **1903** علاوة على البرك والمستنقعات المنتشرة في القرى المصرية واستعمالها في الاستحمام

وغسيل الثياب والحيوانات والشرب أحياناً، وقد صدر أمر الحكومة بردمها في "غضون ثلاث سنوات"، وللأسف ظلت باقية إلى زمن قريب فربما كانت ساعة الحكومة متوقفة من وقتها!! حتى أن معدل الوفيات بين الأطفال ظل في تصاعد وهو ما نرصده في كاريكاتير نشرته صحيفة اللطائف المصورة في **28** فبراير **1927** أي بعد وقت هذا الكتاب بربع قرن تقريباً، يوضح أن مشكلة وفيات الأطفال في تزايد وأن مصر من الدول الأعلى في ذلك محملاً مصلحة الصحة المسؤولية ومبشراً بأن الحكومة السنية مهتمة "جد الاهتمام" بهذه المسألة. والواضح أنه لا أحد حرك ساكناً لعلاج هذه المشكلة وإلا لما وجدنا الطبيب الإنجليزي آرثر سيسيل ألبورت يشير في كتابه "ساعة عدل واحدة.. الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية **1937-1943**" أي بعد عشر سنوات من الوعد الذي رأيناه في الرسم الكاريكاتيري يشير إلى نفس المشكلة، وهي أن معدل وفيات الأطفال في مصر هو "الثاني على مستوى العالم إذ تبلغ نسبته مقارنة بإجمالي المواليد **26.5**٪ لكن يضيف سبباً آخر لهذا التزايد في الوفيات بين الأطفال وهو نقص البروتين، فالأطفال المفطومين يشاركون الأسرة طعامهم المكون من "خبز الذرة والشاي الأسود" و لا يحصلون على اللبن إلا لو كانت العائلة "تمتلك بقرة أو جاموسة"، أما لو كانت تمتلك ثوراً فحتماً سيهلك الطفل

جوعاً. وهذا يعلمنا أن لا فرق بين مصر قديماً وحديثاً، كل ما هنالك أننا نتوارث المشاكل عبر الأجيال المختلفة دون أن نستأصل المسببات المتراكمة.
كما أن الواضح أن التهاون الحكومي وإهمال أمر الفقراء وصحتهم استمر لوقت طويل حيث ينقل (أرثر سيسيل ألبورت) في كتابه أيضاً عن الأمير محمد علي توفيق ولي عهد المملكة المصرية آنذاك، أنه بينما كان يركب مركب نيلي بجوار الإسكندرية رأى جاموسة غارقة في ترعة "تغذي مدينة الإسكندرية بأسرها"، وبعد أسبوع وجدها مكانها وبجوارها "كلب ميت" وأن واجب البوليس والمختصين إزالة هذه الملوثات لكن لا حياة لمن تنادي"!
لا يتركنا صاحب الرسائل دون حلول والحلول تتمحور حول إيجاد نظام صحي أفضل يقلل وفيات الأطفال بالأخص عبر "إصلاح حال المساكن والتدقيق والمراقبة في أمور الصحة والقوت والتسلط التام على مواد الطعام وإرغام المخازن التي تبيع الأطعمة ألا تبيع سوى الصحيح الجيد منها" جميل ولكنها حلول تتعلق بالحكومة فماذا عن الشعب؟ وماذا عن عاداته الخاطئة في هذا الزمن؟ فليس من الحكمة أن نحمل الحكومة والمحتل أسباب كل أزماتنا ولذلك وللسعي لصورة كاملة عدت لكتب هذه الفترة لدي ومنها كتاب (التقويمات الصحية على العوائد المصرية) تأليف المرحوم الدكتور (عبد الرحمن أفندي إسماعيل) طبعة **1903**، وجاء الكتاب بأمر من صاحب السعادة (يعقوب باشا أرتين) وكيل المعارف العمومية. يرصد

الكتاب العادات المصرية غير الصحية فمثلاً يضيف إلى أسباب ازدياد متوسط الوفيات في الأطفال زمن الصيف والذي يبلغ (**45** في الألف) سبباً وهو تناول الفاكهة غير الناضجة مثل البلح الأخضر (الرامخ أو النيني) والشمام الأخضر (بسرت الشمام)، وكذا العجور والحرش الأخضر، كما يعيب على المصريين أنهم "لم يحسنوا إلى الآن" طريقة لحفظ الماء في منازلهم "فلا نكاد نرى منزلاً في المدن إلا وآنية حفظ الماء موضوعة بجوار المرحاض". وكذلك القرويون يستخدمون مياه آبار المساجد الموضوعة بجوار المراحيض، مما يسبب أضراراً جسيمة كمرض الديدان الدموية الخيطية (فيلاريا). كما يشير أنّ البراقع ذات القماش السميك تكدر وظيفة التنفس وتؤدي للطفح الجلدي (كالنمش) والحرير منها يحفظ المواد العفنة والجراثيم، وأنّ قصبة البرقع من أسباب الحول!! وأنّ أفضل أنواعها الأبيض الرقيق المسمى (اليشمك) ومن العادات الطريقة التي ينهى عنها باعتبارها سم قاتل إطعام الطفل الرضيع من كعك العيد الممتلئ بالسمن والسكر!! والحقيقة إنّ أجمل ما قرأت في هذا الكتاب جمعه لدرس صحي وتربوي في قالب واحد كيف؟! فحينما يطالب بالابتعاد عن الحلوى التي يبيعها الباعة الجائلون لأطفال المدارس يتحدث عن شراء بعض الأطفال لهذه الحلوى بأجل "حتى توجد معهم دراهم"، وأنّ الباعة الجائلين يطالبون هؤلاء الأطفال بمستحقاتهم مما يشوش فكرهم ويرى أن في ذلك تعويد لهؤلاء

الأطفال في المستقبل على "معاملة الآجال ومماطلة القضاء". إننا بحاجة إما أن نعود لهذه الأزمنة فقط ـوأقول فقط للنهل من هذه المعارف والآداب ـ أو نعيد إحياءها مرة أخرى بإعادة إصدارها بسعر رمزي ضمن مشروع التربية للجميع أو الأخلاق للجميع.

لقد مهد هذا الكتاب وغيره لعشرات الكتب التي تتناول المسائل الصحية مثل: "تدبير حياة الرضيع الصحية من يوم ولادته إلى يوم الفطام للدكتور نجيب قناوي طبيب بمستشفى المجاذيب سابقاً وطبيب بعيادة اللادي كرومر بالإسكندرية **1911**" وكتاب "علم تدبير الصحة للشيخ حافظ موسى أحمد المتخرج من مدرسة المعلمين الناصرية بإرشاد حضرة الدكتور عبد الحميد أفندي سامي مفتش صحة مركز دكرنس الدقهلية **1914**". وبالطبع أتت ثمارها ولو بعد حين.

نعود لكتاب الرسائل مرة أخرى والذي يعقد كاتبه مقارنة بين حركة الإنشاءات وقتها وحال الناس؛ فيتحدث مثلاً عن بناء متحف الآثار المصرية ببولاق قائلاً: "ليس من الحكمة أن نضع الموميات وأوراق البردي القديمة في سرايات فخمة، ثم نترك الناس في بيوت لا سقوف لها" كما يتطرق إلى إنشاء بيت الأسد في حديقة الحيوان والذي أنفق على إنشائه "أربعة آلاف جنيه" بينما "ملايين من الناس أحاطت بهم الفاقة من جميع الجهات".

ويرى الكاتب أنّ حركة النهوض بالطرق والسكك الحديدية وحدها ليست عنواناً للمدنية الصحيحة فيقول: "وجود طريقٍ ذي رصيفين ليس دليلاً على أنّ العناية منصرفة إلى سد احتياجات الأهالي، إلا إذا صح قولهم إنّ وجود الآلة البخارية والسكة الحديدية دليل على المدنية الصحيحة" و"أن إصلاح بقعة من الأرض لا يمكن أن يوهم أن الأحوال في هذا البلد على ما يرام".

نأتي لقضية هامة أثارَها الكتاب ويكاد يكون مجمعاً عليها بين المصادر التاريخية، وهي أنّ مهمة التعليم في هذه الأزمنة كانت تفريخ وظائف الكتَبة والمترجمين من المصريين، ليكونوا تحت إمرة رؤسائهم الإنجليز ويرصد الكتاب حجم الإحجام عن الالتحاق بالمدارس الحكومية في مصر منوها على أهمية تعميم التعليم الابتدائي الإلزامي وعدم التأخر في ذلك، ويعدد الكاتب مواطن القصور في التعليم؛ فالتعليم الديني مهمل والمدارس الثانوية لا تدرس تفسير القرآن ولا مبادئ الدين على الإطلاق، وأنّ التاريخ لا يعدو مجرد سرد تواريخ وحوادث والجغرافيا مجرد أسماء وأرقام لا فائدة منها يا ترى هل هذا صحيح؟! لقد عدت إلى مقتنياتي ومنها كتاب (الدروس الجغرافية لتلامذة السنة الثانية ابتدائي) تأليف حضرة محمود أفندي فهمي من متخرجي المدرسة التوفيقية ومدرس الجغرافية والتاريخ بها وحضرة سيد أفندي عزمي مدرس التاريخ والجغرافية بمدرسة الناصرية والصادر عام **1900**، والكتاب مشتمل على أربعين درساً ما بين تعاريف

أولية وتقسيمات مصر الإدارية والسودان وطرق الرعي وفيضان النيل والطرق الحديدية والصادرات والواردات بالأرقام وغيرها، مما يندرج تحت الحفظ والتلقين لا تنمية المهارات والاستنتاج لا زلت أتذكر منهج الجغرافيا القائم على التشويق الذي درسته في معهد الدراسات الإسلامية والطريقة المثلى في شحذ الذهن والاستنتاج بين علل؟ وماذا يحدث لو؟ وغيرها.

كما يكذب زعم كرومر بإطلاق حرية اللغات في مصر مؤكداً أن اللغة الفرنسية قد تم إلغاؤها من المدارس الابتدائية وأن العلوم جميعها باللغة الإنجليزية ويشير إلى مسألة لازالت إلى يومنا هذا، وهي الاهتمام بقواعد اللغات على حساب النطق والممارسة الفعلية، فالطالب المصري بين **14**-**15** عاماً يحسن اللغة الإنجليزية، لكنه لا يجيد لفظها مع قلة محفوظة من مفرداتها "لأنهم يكثرون من تعليمه أصول اللغة ويقللون من تعليمه الإنشاء".

لا تخلو الرسائل من عدد من الطرائف من أبرزها أنّ غرفاً خاصة للأساتذة الإنجليز بمفازاة عن نظرائهم المصريين بالمدارس وأن اعتراض أي إنجليزي على ذلك يعني أنه "على ولاء كثير للوطنيين" ويتم فصله علاوة على غياب روح الفريق بين العاملين في المكان الواحد وكأننا أورثنا ذلك عن عهود الإنجليز، فالمصري "الذي يعمل فكرته يرتكب جريمة وأن أسمى الفضائل

في الموظف المصري هو أن يخضع خضوعاً أعمى وأن يحتمل كل احتقار يبديه الموظف الإنجليزي ولو كان مرؤوساً إظهاراً لذكائه الخارق".

التفاوت الكبير في المرتبات كذلك على قمة الطرائف في الرسائل، فالمستشارون الإنجليز في المصالح الحكومية يتقاضون رواتب تصل إلى **2000** جنيه سنوياً بينما الوطنيون حاملو الشهادة الابتدائية من **4-6** جنيهات والثانوية من **6-20** جنيهاً، والمؤهلات العليا من مدارس الطب والحقوق والزراعة **12** جنيهاً فما فوق، والقضاة من **6-25** جنيهاً، وقضاة المحكمة الشرعية بين **40-50** جنيهاً، أما النظار فرواتبهم **250** جنيه شهرياً مقابل تنفيذ أوامر مستشاريهم (وعن المهن الطبية فراتب الحكيم البيطري طبقاً لإعلان ديوان الأوقاف الخديوية ونشرته صحيفة المقطم **1914** من **10** إلى **12** جنيهاً).

الحقيقة استوقفني في هذا الكتاب أمر وجدت الكاتب قد حاد فيه عن الصواب حينما حمل السلطة الإنجليزية غياب ما يغرس في المصريين عاطفة الرجولية أو الشجاعة الأدبية وحب الوطن وحقيقة الواجب والثبات عليه، وهذا دور حكومة البلاد حتى وإن كانت محتلة فضلاً عن أنه دور المعلمين الوطنيين مثل تجربة محمد وصفي نذير (المهندس) والذي وضع كتاباً في الحساب للمدارس الابتدائية تحت اسم كتاب (الأوصاف النذيرية في

الدروس الحسابية) صادر من مطبعة الدستور عام **1908** متضمناً مزجاً فريداً بين القيم الوطنية والعلوم الرياضية فمن أمثلة الكتاب مثلاً:

-"مشهد فقيد الوطن المرحوم مصطفى باشا كامل كان به **500000** نفس فلو فرض وأنّ المسيحين كانوا **12**٪من هذا العدد وتلامذة المدارس كان عددهم يوازي **2**٪ من عدد المسلمين، فما عدد كل طائفة على حدتها؟" (انظر الروعة في استحضار الوحدة الوطنية في مسألة حسابية).

-"إذا فرض أنّ عدد الحامية الوطنية والاحتلالية **4500** جندي وأن جنود الاحتلال هي **10500** جندي، ومقدار ما يصرف على الجنود الوطنية يساوي ما يصرف على جنود الاحتلال، فكم من الجنود الوطنية مصروفها يقابل مصروف المائة من جنود الاحتلال" (انظر روعة التوصيف ودقة التحديد للمحتل).

-"إذا فرض وأنه جمعت إعانة لعمل تمثال لفقيد الوطن المغفور له (مصطفى باشا كامل) **2800** جنيه وتمثال لهذا الرجل العظيم لا يقل عمله عن **4200** جنيه فكم في المائة يدفع من صندوق الحزب الوطني لعمل هذا التمثال علاوة على ما جمع؟" (انظر لغرس رحيق الواجب الوطني في النفوس في مسألة حسابية بسيطة) لله درك يا أستاذنا الفاضل..

ومن كتب الرياضيات الأخرى: (مجموعة الرسائل الفكرية في المسائل الحسابية) تأليف (محمد محمد مصطفى) مدرس بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بدسوق **1912**. وكما ارتبط بعضها بروح الوطنية كما رأينا في المثال السابق، كان منها ما يحمل في تقديمه شيئاً من التزلف الزائد، فمثلاً كتاب (النفحات العباسية في المبادئ الحسابية) والمقرر على المدارس الابتدائية عام **1898** وطبعة أخرى **1906** يحمل غلافه هذا الإهداء "مولاي أقدم هذا الكتاب المتضمن مبادئ الحساب إلى سدة مقامك العباسي الذي لبست به مصر حلل الفخار وعلا بعلو كلمته للمعارف أعلى منار محلياً صدره باسمك الفخيم وذكرك الكريم ليتيمن بهما المعلم والمتعلم وليتعطر منهما فم المفهم والمتفهم. حفظ الله دولة المعارف بحفظ ذاتك وأحيا ما اندرس منها ببقاء حياتك آمين. عبدكم أمين سامي ناظر مدرسة المبتديان" (أجل يا عزيزي كما جاء ببالك هو نفسه أمين باشا سامي صاحب الشارع الشهير في حي السيدة زينب والمتفرع من شارع القصر العيني، وصاحب كتاب تقويم النيل. وقد قضى ربع قرن في نظارة هذه المدرسة وهو من اختار اسم النادي الأهلي) فهل المحتل مسؤول عن هذا؟!

من أكثر ما وجدت طرافة في هذه الرسائل ما أتى على ذكره صاحب الرسائل من أن اللورد ملنر قال عن مصر: "بلد الغرائب والمدهشات" ولا أظنه قد عرفَ شاعرَنا أبا الطيب المتنبي صاحب المقولة الأشهر عن مصر: "وَكَمْ ذَا

بِمِصْرَ مِنَ المُضْحِكَاتِ وَلَكِنّهُ ضَحِكٌ كَالبُكَا" و"ملنر" لمن لا يعرفه هو وزير المستعمرات وصاحب التحقيق الأشهر في أسباب ثورة عام **1919** وقد طالب سعد زغلول بمقاطعة لجنته قائلاً: "أيها المصريون لا تحنو للجلد ظهوركم ولا تسلموا للنطع أعناقكم" فقاطع المصريون لجنة ملنر ومسرحية العشرة الطيبة أيضاً والتي جاء توقيتها سيئاً وطالعها سيئاً على مؤلفها محمد تيمور الذي مات بعدها كمداً، ونجيب الريحاني الذي أفلس بسببها لفترة وراح لبنان وحتى مطربتها "نهوى حسني" التي ماتت بأزمة قلبية إذ تهكمت المسرحية على الحكم العثماني فهاجمها المثقفون ومنهم إبراهيم رمزي (صاحب روايات الحاكم بأمر الله وصرخة الطفل والبدوية وبنت اليوم ودخول الحمام وعقبال الحبايب)، فعايره تيمور بأنه لم يجد من التاريخ سوى الحاكم بأمر الله ليجسد شخصيته في عمل فني أخرجه جورج أبيض.

ونحن على مشارف نهاية المبحث يجدر بنا أن نجيب على سؤال صاحب الرسائل حول مفهوم الرجولة وسنترك لحضرة صاحب العزة محمد كامل سليم بيك السكرتير العام لمجلس الوزراء في مجلة سكك حديد وتلغرافات الحكومة المصرية عام **1941** أن يحدثنا عن وصاياه العشرة في تعاليم الرجولة ومنها تحمل نتيجة أعمالك بشجاعة وعدم إلقاء اللوم على غيرك والاعتذار عن أي خطأ أو إساءة فوراً من غير تسويف؛ فالاعتذار

ليس ضعفاً، وعدم اليأس من المرض والحزن وغيره والتحلي بالصبر وأنْ "تجعل العدل قائدك والحزم رائدك والكرم ملطفاً لشهوتك والمصلحة العامة على الدوام قبلتك" وأنك "إن اعتدت الصدق مشت الفضائل كلها في ركابك"، وأنْ تفعل ما تراه حقاً وعدلاً وليس ما يرضي الناس، وأن قيمة الأعمال في نتائجها فلابد من إعمال الفكر، وحذارِ من إطلاق لسانك وقلمك عند الغضب، ومن أجمل نصائحه وأنقلها هنا نصاً لروعة بيانها "لا ترجُ من اللئيم أن يصفح ولا من السفيه أن يحلم ولا من القوي أن يستكين؛ لأنك إن فعلت أرقت ماء وجهك وعدت بخيبة الأمل"، ومنها أيضاً قوله: "إن كنت تحب الحرية حقاً فلا تحتكرها لنفسك وتنكرها على غيرك".

في الختام وأنا أنهي قراءة هذه الرسائل المهمة والتي أوصى روبرتسون أن يحسن الإنجليزي صنعاً في الإصغاء لها ولمطالب "فاضل مصري" تفتق لذهني أننا بحاجة إلى إعادة تقييم مشروع الرئيس جمال عبد الناصر في فترة ما قبل عام **1967** والذي وجه بالأساس لنهضة ورقي الإنسان المصري الفقير الكادح بعد سنوات طويلة، كان فيها خارج حسابات حكامه وساسته وضرورة عدم حصر زمنه في الانكسارات العسكرية، فالخمسينيات والستينيات في العالم أجمع كانت فترات المغامرات العسكرية غير المحسوبة وحتى في العهد الملكي السابق عليه، فقد خاض محمد علي باشا حروباً بالوكالة انكسر في نهايتها وكذلك الخديوي إسماعيل. حقيقي أن جمال

عبد الناصر توجه لبناء الإنسان المصري وانفتاحه على الثقافة الغربية فمثلاً: نجد تحقيقاً نشرته روز اليوسف في مارس **1955**. أن الرئيس جمال عبد الناصر حينما علم أن الدكتور طه حسين (أو طاها حسين كما كان يجب أن يكتب اسمه كسراً لقواعد اللغة) يضع مشروعاً لترجمة الآثار الأدبية والفكرية العالمية إلى اللغة العربية، وأنه بحاجة لأربعة آلاف جنيه للبدء بالمشروع، فسارع عبد الناصر لتخصيص خمسين ألف جنيهاً لتوضع تحت تصرف طه حسين والطريف أن الصحيفة استطلعت آراء الأدباء حول المشروع فترك محمد حسين هيكل للدكتور طه حسين مهمة الاختيار لثقته في علمه أما العقاد فرأى ترجمة الكتب الكلاسيكية وفلسفة اليونان وروايات شكسبير فيما رأى سلامة موسى وأنا من رأيه لو كنت في هذا الزمان وطرح عليّ الاختيار أن الكتب العلمية التي غيرت أوروبا هي الأولى بالسبق.. إن دراسة التاريخ تتطلب أن ننظر للأمور بحيادية وبزاوية كاملة غير منتقصة.

****

سبيل التقدم

مما لا شك فيه أن بناء الإنسان وتهذيبه وتنمية أخلاقه وإصلاح سلوكه لهي من أعظم المهام وأبرز تطلعات أي مجتمع ناهض أو يسعى للتقدم، وما يتميز به الماضي روعة كتبه ومصنفاته في هذا المضمار والتي تخدم هذه الغاية النبيلة، لذلك فلا بأس من أن نعيد لبعض هذه الكتب الحياة ولو كنت ناشراً لأعدتَ نشرَ عددٍ كبيرٍ من كتب الماضي، والتي تدعم بناء الإنسان وتنتصر لأخلاقه وجعلتها متاحةً بأسعارٍ رمزيةٍ للجميع؛ لتزين المكتبات العربية من جديد، وتطعم حياة الأسر بكل ما هو مفيد من فضائل وقيم.

يقول السلطان حسين كامل في خطبة له عن أهمية التعليم: "اعملوا وجدوا وتعلموا وتهذبوا؛ فإنكم لا تبلغون قصداً ولا تصلون إلى غرض بغير العلم. هذبوا المرأة وارفعوها إلى مقامٍ سَامٍ وانسوا وتناسوا ما بينكم من منافسات طفيفة فجميع من تظله سماء مصر هم مصريون".

لا أعلم ما بيني وبين السلطان حسين كامل حتى أرى تاريخ وفاته بالمنام في **9** أكتوبر **1917**، والذي جاء نعيه في اللطائف المصورة "اهتزت أعصاب البلاد من ساحل بحر الروم شمالاً إلى أقاصي حدود السودان في أواسط أفريقيا جنوباً فروعت القلوب وشقت الجيوب وسالت الآماق، و"انطفأ ذلك

النور الساطع الذي كان يضيء البلاد" كي أبدأ التقليب في تاريخه فتعرضت لسيرته الشخصية مرات في كتاب (حكايات من بحور التاريخ) وكتاب (حواديت المحروسة) كما تعرضت لتجربة تربية الفتيات في عهده في كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر).

والحقيقة أنّ فترة حكم السلطان حسين كامل شهدت اهتماماً كبيراً بالتعليم خاصة تعليم المرأة.

كما عرف عنه ولعه بالتعليم والتهذيب حتى قبل أن يتقلد السلطنة وكان لايزال أميراً؛ ففي فترة إشرافه على نظارة المعارف أُنشِئَتْ مدرستان الأولى مدرسة دار العلوم ومدرسة البنات بالسيوفية أول مدرسة حكومية مجانية لتعليم الفتيات التي سُميت بالسنية فيما بعد، عام **1873**.

سؤال على الهامش: أما وقد أنشئت المدارس للبنات، فماذا عن ردة فعل الأهالي. هل سارعوا لإلحاق بناتهم بها؟!

يجيبنا عن ذلك الأستاذ محمد عمر وهو من مستخدمي مصلحة البوستة المصرية وصاحب كتاب (حاضر المصريين أو سر تأخرهم **1902**) أنْ عَرَفَ المصريون السائدَ وقتها مسلمون وأقباط "أنّ البنت إذا تعلمت وتثقفت ترجع بالضرر على العائلة" لماذا؟! لأنها أصبحت "أهلاً للمغازلة والمكاتبة مما يفسد الأخلاق"، وبالتالي كانت الأمة تنفر من هذه المدارس "نفور السليم من الأجرب"، فصارت هذه المدارس لا تحتوي إلا على "البنات اللقيطات" كي

يتعلمن القراءة والكتابة، ومن ثم دروس فن الولادة وتطبيب النساء في قسم خاص لهن بمدرسة القصر العيني، وإنّ البنات السوريات الوافدات لمصر كنَّ الأكثر تقدماً فيما يخص الإقبال على التعليم. أهم درس نتعلمه هنا هو ضرورة زلزلة القناعات الراسخة لذلك من أهم خطوات إحداث أي تقدم في أية مسألة هي تغيير الثقافات الموروثة أولاً.

نعود إلى حسين كامل والذي أوكل لرفاعة الطهطاوي كتابة مرجع لتعليم البنين والبنات هو "المرشد الأمين في تربية البنات والبنين" ويقال: إنّ هذا الكتاب شجع (جشم آفت هانم) زوجة الخديوي إسماعيل وأم السلطانة ملك حسن طوران بالتبني زوجة السلطان حسين كامل الثانية أن تتبنى مشروع المدرسة السيوفية التي أشرنا لها آنفاً، وأسندت شؤون التربية فيها للسيدة روزة المربية المعروفة آنذاك.

حتى نستفيد من التاريخ في التجارب الخاصة بتعليم المرأة وهو أمر شديد الأهمية، فمن الضرورة بمكان ألا نستعرض طوال الوقت رواد العمل النسائي وهن للأسف عانين فصاماً في حياتهن جعل تجاربهن كثيرة الارتباك والغموض وعرضة للتشكيك، وقد تناولنا تجربة هدى شعراوي من قبل في كتاب (على هامش التاريخ والأدب)، وأتبعها هنا بسيرة (منيرة ثابت) وهي أول حاصلة على شهادة الليسانس من مدرسة الحقوق الفرنسية، وأول مصرية صحفية نقابية وأول رئيس تحرير لجريدة سياسية وأول صحفية عربية وهي أول فتاة مصرية يتم محاكمتها وهي دون السن القانونية، حقق

معها النائب العام بنفسه في محاكمة حضرها مندوبو الصحف ووكالات الأنباء العالمية، وصاحبة العبارة الشهيرة: «إنها تهمة لا أنفيها وشرف لا أدعيه».. ومع كونها الأولى في كل شيء في العمل النسوي إلا أنها قبلت أن تكون الزوجة الثانية في حياتها العائلية، حيث قبلت أن تتزوج عبد القادر حمزة باشا الصحفي الشهير، متغاضية عن الفارق السني وعن كونه متزوجاً وربّ أسرة، ونزلت على رفض سعد زغلول باشا لطلاق الرجل من زوجته وليس هذا فحسب، بل قبلت أن تكون ربة منزل وتتخلى عن كل أنشطتها بما فيها صحيفة الأمل التي توقفت، أي بصريح العبارة كفرت بكل ما دعت له آنفاً من خروج المرأة للعمل ونبذ تعدد الزوجات، لكن بعد زمن بدأت تتململ من الفارق العمري بينها وبين زوجها وعادت للواجهة مرة أخرى مع ثورة **1952**.

لذا أعتقد أن الأولى في تناول تجارب النهوض بالمرأة أن نصب اهتمامنا على كتب لا أشخاص وكنوز من المقررات الدراسية والكتب التي اهتمت بتثقيف الفتيات ورقيهن، وقد تناولنا بعضها في كتاب (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر)، ونعود لها مرة أخرى ولكن مع كتاب جديد هو (الفتاة والبيت) للسيدة ج.س.دوبوك بقلم أنطون بيك الجميل والكتاب صدر في طبعته الأولى في أول ديسمبر عام **1915**، وسأعتمد هنا على الطبعة السابعة المتاحة لدي والصادرة **1925**، وقد أتى تقديم مصطفى لطفي

المنفلوطي صاحب النظرات والعبرات طريفاً، فالكتاب فضلته ابنته على كتابه النظرات.

يشير الكاتب أنّ إعداد الفتاة للقيام بواجباتها الجمّة "طبق المرام" يكون مع فتح باب العلم لها على مصرعيه لأن العقل المثقف أكثر إدراكاً للواجبات وأقدر على تأديتها من غيره، وأن تكون أعمال الفتاة وآثارها الحميدة نامة عن معارفها لا أن تكون معارفها وسيلة للمفاخرة والمباهاة.

وأن دور المرأة أن تتدبر حاجات بيتها، وتضبط حسابه وتشمل بعنايتها من فيه، وأن تكون مرشداً لزوجها بآرائها المخلصة والسديدة عند الحاجة.

وأنّ الثقة المتبادلة بين الأم وابنتها مهمة في تربية الفتيات وتقيهن العثرات في طريق الحياة وأنه لزاماً أن تنوب الفتاة عن أمها في إدارة البيت إذا مرضت الوالدة وتعذر عليها العمل.

ويعتبر الكتاب أن علم تدبير البيت هو الأساس فهو علم إدارة المنزل ومن فيه وما فيه بطريقة رشيدة وحكيمة ليسود فيه النظام والترتيب والنظافة وراحة الجسم واطمئنان النفس فالمرأة شريكة الرجل القائمة بحاجاته المربية لأولاده المواسية له في مرضه المعاونة له في صحته، ومهام الزوجين في الأسرة محدودة، فالرجل يقوم بالأعمال الخارجية يجد ويجتهد في عمله لكسب الرزق، والمرأة تهتم بالأمور الداخلية و"استعمال الأموال المرتبة لها استعمالاً يعود على الأسرة بالراحة والهناء والرفاهية". ونورد من الكتاب الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأحصاها ووضع اشتراطاتها جدولاً

لميزانية شهرية لمنزل دخله **30** جنيهاً شهرياً على سبيل الطرافة (إيجار **5** جنيهات- غذاء **10** جنيهات- إنارة ووقود **700** مليم-كساء **3** جنيهات- أثاث جنيهاً و**200** مليم-نفقات مدرسية **2**جنيهاً-أجر وانتقال **2**جنيهاً و**500** مليم -تطبيب **600** مليم -شتى **2**جنيهاً- اقتصاد **3**جنيهاً) ياله من زمن!!

ثمة كتب أخرى تناولت نفس النصائح مثل كتاب (حياة الزوجين) لعبد اللطيف مصطفى أحد موظفي مصلحة البوستة المصرية بالقاهرة **1907.**

وعلى الرغم من حركة النهضة الكبيرة بالمرأة المصرية في عهد الأسرة العلوية، فنجد أول مضيفة للطيران مصرية في الأربعينيات هي إيفا كرم، والتي حققت رقماً قياسياً في ساعات الطيران، ونجد في الثلاثينيات زينب كامل حسن أول معيدة بقسم الكيمياء بكلية العلوم، والتي استطاعت هي وزوجها الدكتور علي حسن أستاذ الكيمياء بطب جامعة فؤاد الأول التوصل لمصل مضاد من الماعز للتصدي لسم العقارب، في وقت كانت تواجه فيه بالملاقط والصفائح والفوانيس!! ونجد الملك فاروق في بطولة السباحة عام **1942** يصافح الآنسة مارسيل رينو خمس مرات، ويضطر في المرة الخامسة أن يسلمها الجوائز دفعة واحدة حتى لا يرهقها بعد المباراة لكن في المقابل نجد جموداً في البروتوكولات الرسمية والتي تضطر مثلاً أم المصريين السيدة

صفية زغلول أن تتغيب عن مشهد إزاحة الستار عن تمثال زوجها سعد زغلول في محطة الرمل عام **1938**، ذلك لعدم تخصيص كرسي لها في السرادق الكبير بجوار جلالة الملك فاروق، حتى يتسنى لها مصافحته والاكتفاء بوضع سرادق صغير لها للمشاهدة، وقد حاول أحمد ماهر باشا، وعلي باشا ماهر ومحمود فهمي النقراشي باشا، وعبد الفتاح باشا يحي إقناعها بالحضور، لكنها أصرت على الاعتذار، والحقيقة أن الإصرار على مثل هذه البروتوكولات لم يكن من الوجاهة؛ فالملك فاروق نفسه زار متحف الأحياء المائية بالبحر الأحمر وبرفقته إنطوان بوللي ووقف مع خبير الأحياء البحرية الدكتور حامد جوهر بالشورت!

لو كنت من مواليد الثمانينيات مثلي؛ فأنت بالتأكيد من الجيل الذي عاصر نهايات الكراسات الحكومية التي كانت توزع مع الكتب المدرسية في بداية العام، ويحمل غلافها الخلفي عدداً من النصائح المدرسية المفيدة ولو عدنا لبدايات هذه النصائح في العهود الماضية، فلا يفوتنا من المؤلفات الثمينة كتاب (النصائح المدرسية والمعلومات المفيدة للمدارس الأولية والابتدائية) تأليف (إسماعيل توفيق) ناظر مدرسة مصر الجديدة الأميرية والمقرر تدريسه بمعاهد مجالس المديريات، وسنعتمد هنا على الطبعة الرابعة **1929**وقد حملت الطبعة الخامسة من الكتاب (**1929-1930**) إهداء لفاروق ولي عهد المملكة المصرية يقول عنه: "هو ذخر مصر وأملها المرجو

وطالعها الميمون". هذا الكتاب تحفة تربوية تستحق الاحتفاء وسنة أخلاقية تحتاج لإعادة الأحياء مرة أخرى، فالكتاب يضع برتوكولاً كاملاً للطالب وما ينبغي أن يكون عليه بالمدرسة وخارجها وفي الطريق إليها فمثلاً: السير إلى المكاتب (غرف الدراسة) دون إسراع الخطى وأن يكون حمل الكتب باليد اليسرى حتى يتسنى للطالب تحية من يمر به من الرؤساء.. وإذا دخل المدرس وجب الوقوف له احتراماً وعدم الجلوس إلا بأمره وعدم الانشغال حينها بفتح القماطر (أدراج الكتب) أو البحث في الكتب أو الشكوى من التلاميذ لأتفه الأسباب (طبعاً هذا الوقوف له من يستحقه ففي ذاك الزمان كان المعلم معلماً وليس الآن كبراً وتعالياً وتسلطاً، لقد فصل صديق لي من شركة لأنه لم يقم وقوفاً لتحية رئيس القسم!). والجلوس للقراءة والكتابة يكون بقامة معتدلة، وبعيد عن النظر بالكتاب بقدر ثلاثين سم على الأقل وتكون الكتابة باليد اليمنى مبعداً الأصابع عن سن القلم متجنباً الترميج (الشطب) والكتابة بين السطور داعياً لتحسين الخط "فالخط الحسن يزيد الحق وضوحاً ويشرح صدر الناظرين فيه"، ويتطرق إلى ضرورة الجلوس أمام المعلم يقظاً ومصغياً معتدل الجسم لا يلعب بيديه ولا يعبث برجليه ولا يتكلم إلا باستئذان برفع سبابة اليد اليمنى على القمطر (شتان بين هذا الأدب الجم وانفلات التعليم بعد كارثة الكوارث مدرسة المشاغبين).

يؤكد الكتاب أيضاً من منظور أخلاقي على أهمية درس الدين والإقبال عليه بنفس "ملؤها الوقار والاتعاظ" لما له من أثر في تعلم أصول الدين وتهذيب النفوس وتجميل الطباع وأن تقترن المعرفة بالعمل فيقول: "واعمل بما تعلم تكن سعيداً في دنياك وآخرتك"، كما يلفت النظر إلى ما أسماه العادة المستهجنة وهي "تخطيط حيطان المدرسة بالحكك الملون (الطباشير) أو بقلم الرصاص" أو كتابة كلمات مستهجنة على جدار المراحيض (الظاهر أنها عادة قديمة) لأن في ذلك "برهان قوي على سوء الخلق" كما يستحث الكتاب لدى الطالب الشعور بالمسؤولية تجاه الممتلكات العامة وعدم إتلافها لما في ذلك من إضرار بالاقتصاد، فينصح التلاميذ بعدم حفر أسمائهم على القماطر (أدراج الكتب) من الداخل خصوصاً آخر العام، لأن ذلك يحمل خزانة الحكومة والمدرسة ثمن غيرها وأجرة إصلاحها "فكل من يعمل ذلك غير محب للاقتصاد عدو لبلاده وللنظام" كذلك عدم إتلاف مصورات المدرسة بتمزيقها والتخطيط عليها بالمداد أو الرصاص كي لا يحرم نفسه أو غيره من فوائدها.

ينصح الكتاب الطالب بالنوم المبكر والاستيقاظ المبكر، وتنظيم الملابس بعد خلعها عند النوم في "أمكنتها المعدة لها" وتنظيف الحذاء قبل النوم وفي الصباح "دفع الخمول بقضاء الحاجة ونظافة الأعضاء، ثم تأدية الصلاة وارتداء الملابس"، وعدم التأخير والخروج من البيت بحيث يكون الوصول إلى المدرسة قبل ابتداء الدرس بربع ساعة وتطال النصائح ما بعد انقضاء

اليوم الدراسي والعودة إلى المنزل حيث مطالعة درس اليوم ومراجعة ما أخذه بالأمس واستذكار ما يطالب به بالغد دون مراقبة؛ "فإن الذي لا يقوم بعمل واجبه إلا تحت المراقبة جبان لا يستحق الاحترام".

يؤكد الكتاب على أهمية الحرص على مراعاة العادات الغذائية الصحية ومن ذلك "الصبحة" أو طعام الصباح قبل الخروج إلى المدرسة لضمان عدم الاضطرار إلى الطعام خارج المنزل ذلك أن شراء الحلوى من الباعة الجائلين خطر فالمأكولات "قذرة" معرضة للذباب والأوساخ والهوام؛ "مما يسبب الأمراض وفي سبيل التأكيد على ذلك يضرب الكاتب مثالاً بتلميذ اعتاد شراء هذه الحلوى حتى شحب لونه وضعفت قوته ودار رأسه وقل نومه واعتلت صحته" ومع عرضه على الطبيب يكتشف أن الداء في المعدة والأمعاء ليموت في النهاية! تتطرق النصائح إلى مراعاة آداب النظافة داخل المكتب (الفصل) بعدم إلقاء قصاصات الأوراق وفلول الأقلام على الأرض بل في السلة المخصصة لذلك، وعدم البصق في الطريق أو وسائل المواصلات لأن ذلك "منافٍ للصحة والآداب"، كما يأتي على ذكر آداب الطريق فالسير من أقرب الطرق وآمنها والتزام الطوار الأيمن (الرصيف) والنظر للأمام وعدم الالتفاف يمنة أو يسرة وتقديم العون والمساعدة لكبار السن ومساعدة صغار السن إن هاجمهم كلب عقور (للأسف هذا الزمن كانت الشوارع مليئة بالكلاب الضالة كأزمنتنا) ويختتم الكاتب هذه الآداب

بعبارة من أجمل ما قرأت في الحث على الاستزادة من الخير تقول: "لا تمضِ في طريقك من غير عمل تحمده لك الإنسانية ويشكرك عليه الضعيف".
وحول استخدام وسائل المواصلات فيوجه نصيحته للطلاب عند ركوب مركب الكهرباء (الترام... لاحظ أن الكاتب لا يرتضي بديلاً للفصحى ويعرب كل الكلمات الأفرنجية في زمانه حتى أنه أطلق على البرلمان المصري دار الندوة!) بعدم الركوب حتى تقف المركب في محطة وعدم المزاحمة وعدم فتح النوافذ المغلقة في الطقس البارد لعدم إيذاء الغير، وإن كان الطالب من أصحاب الاشتراكات فليعد صك الاشتراك قبل الخروج من المنزل وإن كان غير مشترك فليحافظ على الأجرة من الضياع ولا يشجع عامل الترام على سرقة الأجرة أو الهروب من دفعها بالركوب على السلم (لاحظ التربية الرشيدة على أداء الحقوق ودفعها لمستحقيها).
نأتي إلى قواعد الذوق والإتيكيت في الطعام وهي مثار استهزائنا الحالي رغم أهميتها، فتناول الطعام بالمدرسة يبدأ بوضع الفوطة على الصدر وعدم القهقهة أثناء الأكل، أو التحدث بصوتٍ عالٍ، واستخدام السكين واللاقطة (الشوكة) والملعقة، "وإياك أن تحمل الطعام على السكين إلى فمك" مع تصغير اللقمة والمضغ الجيد والشرب من الكوب المخصص، وتناول الحلوى آخر الطعام مع الحذر من امتلاء المعدة، وتجنب بطر الطعام الذي يضعف الصحة، وألا يترك الصنبور مفتوحاً بعد غسله، والبعد عن حمل الفاكهة كالبرتقال والموز لفناء المدرسة، حتى لا يُلقى القشر في أرضه وينصح

الطلاب بعد الطعام بعدم شغل العقل بالاستذكار ولا إجهاد الجسم بالعدو والمزاح باليد وبالصفير، ولكن التحدث مع الإخوان في فناء المدرسة "وأنت سائر الهوينى أو جالس على المقاعد".

ونجد أن الاهتمام بهذا المنحى والذي يعكس احترام المائدة والضيوف له احتل مكاناً أيضاً في الصحف، ففي (اللطائف المصورة) في **20** أغسطس **1917** كتب (نجيب أفندي فهمي) تحت عنوان "نصائح وحكم" بعضاً من الآداب العامة، مثل: عدم طي الفوطة التي بيدك بعد الأكل وتركها على المائدة، وعدم ترك المائدة حتى يقوم الآخرون، وعدم المكوث بعدهم، وعدم شرب الخمر ولو كانت مجاناً، ولا تجلس سيدة على يسارك على المائدة، بل على يمينك ولا "تتحنشص" أو تتفلسف في كلامك أثناء الأكل، بل اجعل "ألفاظك بسيطة" وداعية للسرور.

لا تعجب يا سيدي القارئ، فقد كان "الإتيكيت" واللياقة علماً وتدريباً في هذه الأزمنة التي تحفظ لكل شيء قواعده. زمان جميل لا تجد فيه جماعة ترفض الوقوف للحداد والسلام الوطني بدعوى كونه بدعة، فمثلاً كتاب "اللياقة والإتيكيت للرجال والسيدات والأطفال وأرباب الأعمال" وضع أحمد محمود غنيمي حينما يتحدث عن السلام الملكي وآدابه يقول: "إذا صدحت الموسيقى بالسلام الملكي فلابد من الوقوف في المناسبات احتراماً. هذا ما تحتمه اللياقة وما يقتضيه الشعور القومي الراقي. راقب غيرك أن

يكون على أحسن تأدية لأن القانون يرغم ما لا ذوق عنده محافظة على الآداب العامة" حقاً زمانٌ راقٍ.

نعود للنصائح العامة بالكتاب وهي غاية في الإمتاع والعذوبة، فتحت عنوان "مجاهدة النفس" يقول: "لا تجعل الغلبة لنفسك عليك" ويسوق لشرح ذلك قصة الإسكندر الأكبر الذي برغم فتوحاته العظيمة أقدم على قتلِ صاحبٍ عزيزٍ عليه وقت غضبه ليخلص من ذلك بالقول: "لو حالف النصر رجلاً في غزواته ألف مرة وتغلب في كل مرة على عشرة آلاف رجل وتغلب رجل آخر على نفسه مرة واحدة، لكان الذي غزا نفسه فتغلب عليها أحق بالمدح وأولى بالتكريم" (ليت شعري ما أطيب هذا القول والمثل).

وتحت عنوان "إيثار الآباء وأثرة الأبناء" يشير إلى قضية اجتماعية هامة وهي أن حرمان الآباء لأنفسهم من أشياء يعطونها لأبنائهم عن طيب خاطر هي "مكرمة" لا ينبغي أن تتحول مع الوقت إلى حق مكتسب يولد لدى الأبناء الأنانية وحب النفس فحب النفس رذيلة تدل على "ضعف في الخلق وموت في الشعور" وتحت عنوان "الصدق" كان تأكيده على ضرورة المصارحة والاعتراف بالخطأ فخير لك "أن تعاقب من أن تكذب"، فإذا سئل المرء عن اقتراف الخطأ أجاب على الفور: "نعم اقترفته"، سائلاً العفو مع عدم التكرار وينبه على أن القسم بالله وبالنبي يدل على عدم الثقة بالنفس وينبغي عدم فعله. ومن النصائح الأخرى طاعة الوالدين وتنظيم العمل والعطف على الحيوانات.

ربما تتساءل عزيزي القارئ لماذا كل هذا العرض لهذه الكتب؟
والإجابة أنه آن الأوان أن نميط اللثام عن مصادر ثقافية من الزمن الماضي تستحق أن تقرأ وأن تكون جنباً إلى جنب بضعة الأسماء اللامعة التي لا يذكر سواها كأعمدة للأدب العربي، وقد خدمتها ظروف معينة فيما بقيت أسماء جاهدت لبناء الشخصية المصرية قابعة تحت التراب ووسط تلال من كتب قديمة تباع على الشوارع والأرصفة تنتظر مصيراً مجهولاً، فإما أن تقع بين يدي شخص يفهمها ويعيد إحياءَها أو تضيع للأبد.
أظن أننا نحتاج إلى متحفٍ تعليميٍّ لرصد وفهرسة كل الكتب التعليمية التي صدرت بمصر؛ لنعيد إحياء ما يستحق منها الإحياء ونلتمس من تجارب أجدادنا في التعليم والتربية ما يستحق الاحتفاء.

****

الديموقراطية بين غياب المفهوم وسوء الاستخدام

كان الأب في القوانين الرومانية وحده دون سواه صاحب السلطة المطلقة في أسرته له حق الموت والحياة على أبنائه وزوجته وعبيده، ومن ذلك نشأ مصطلح السلطة الأبوية الذي ساد مستعمرات روما القديمة ومنها مصر.

في المجتمعات القبلية يعد سيد القبيلة أيضاً الآمر الناهي في قومه والمتحكم في شؤونهم، وكان الحكام عبر التاريخ يخشون بعض زعماء القبائل بشكل كبير ويوقرونهم بطريقة خاصة لمنعتهم الشديدة بأتباعهم المطيعين، ولنا في الصعيد وقبائل سيناء أمثلة حية لازالت إلى اليوم.

مثلاً: الأحنف بن قيس بن معاوية بن الحصين التميمي، وكان سيد قومه تميم على الرغم من إعاقته وكان يضرب به المثل في الحلم فقيل: "وإلى الأحنف أسني الحلم والسؤدد". كان الأحنف من المرتدين مع جماعة سجاح التميمية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، والذين حاربهم أبو بكر الصديق وبوفاته وتولي عمر بن الخطاب أصدر عفواً عن المرتدين، ومنهم الأحنف وكان موقف سيدنا عمر منذ البداية عدم خوض الحرب ضد المرتدين.. أبلى الأحنف بلاءً حسناً في عهد عمر في فتوح العراق وخراسان وارتفعت مكانته وتوطد نفوذه وعمر الأحنف زمناً طويلاً حتى أدرك الصراع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وكان في معسكر علي،

فلما كانت الغلبة لمعاوية أغلظ له في القول لكن ردة فعل معاوية أثارت اندهاش ابنته من كظم غيظه تجاه الأحنف ومحاولة تطيب خاطره، فقال لها معاوية: "هذا الذي إذا غضب، غضب لغضبه مئة ألف فارس من بني تميم لا يسألونه فيما غضب" أدري يا عزيزي القارئ أن الجملة لها ما يشبهها بحس كوميدي في فيلم (محامي خلع) وشخصية العمدة "بدر عبد الرحيم النوساني".

وللأسف في عصرنا الحديث تجد هذا النموذج موجوداً والذي يحتمي بأتباعه الكثر وإن جرؤت على انتقاده نالك منهم أشد الوعيد في النقابات المهنية والمصالح الحكومية وحتى في المحيط الأدبي فمثلاً أمير الشعراء أحمد شوقي بحسب وصف الدكتور زكي مبارك "كان إذا غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب" وعلى المستوى الدرامي الذي يعكس صور من التاريخ نجد شخصية كالسيد عبد الجواد في ثلاثية نجيب محفوظ مثالاً يمارس القهر بين أسرته في أوائل القرن الماضي.

هذه السلطات الأبوية والقبلية السالبة للحريات والحقوق والحق في إبداء الرأي ومن سار على دربها قوضت مفهوم الديموقراطية وغيبت معالمها ومعانيها لقرون وحرمت حرية الرأي في الماضي وجعلتها منبوذة ومستهجنة في العقول وغير محددة المعنى والساعي إليها خارج عن الجماعة وساعياً لكسر ثوابت المجتمع وأخلاقياته ومن أمثلة ذلك حينما تقدم أحمد لطفي السيد صاحب المكانة الأدبية الرفيعة ورئيس الجامعة والذي قيل إن

جمال عبد الناصر اقترحه رئيساً لمصر بعد ثورة **1952** ورفض! هذا الرجل رشح نفسه يوماً لعضوية الجمعية التشريعية عن دائرة قلين بالدقهلية عام **1913** فاستغل غريمه ومنافسه على مقعد الدائرة الشيخ "عثمان سليط" جهل الناس بالديموقراطية وراح يشيع بين الناس أن أحمد لطفي السيد من دعاتها وأن الديموقراطية هي مساواة المرأة بالرجل، وبالتالي فالمرأة لها أن تتزوج بأربعة رجال تماماً كحق الرجل في الزواج بأربع نساء! وهو المصاب الفادح في حق الدين والتقاليد... بالطبع كانت النتيجة سقوط لطفي السيد في الانتخابات ونجاح منافسه (إنها لعبة الانتخابات والقدرة على الحشد ولو على حساب العقل وتبعاتها يا عزيزي. عرفت نقابياً كان يكرم مالاً يقل عن **300** من أبناء مهنته مثاليين و**500** أم مثالية (بعضهن لم يتزوجن بعد والبعض الآخر مجاملات من خارج المهنة!!) كل هذا العدد سنوياً لدرجة أن بعضهم حصل على لقب المثالي ثلاث وأربع مرات على التوالي وكل هذا من أجل حشد أصوات انتخابية!).

طبعاً لطفي السيد دخل مجلس الشيوخ عام **1941** مقابل استقالته من الجامعة لرفضه إرجاع طلبة فصلتهم الجامعة بسبب الغش، وأراد الملك عودتهم وهو أمر يحسب للطفي السيد، وذلك بحسب شهادة الدكتور طه حسين على لسان الدكتور محمد الدسوقي في كتاب (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره).

وقد تناولت في كتابي (على هامش التاريخ والأدب) وهنا شخصية إسماعيل صدقي أحد أهم الساسة البارزين المؤمنين بعدم أهلية الشعب المصري للديموقراطية.

النظرة للديموقراطية في هذه الفترات لم تختلف بين سياسيين ومعارضين فمصر دائماً غير مؤهلة للديموقراطية، ففي حديث لفتحي رضوان في المصور وكان وقتها سكرتيراً عاماً لحزب مصر الفتاة ورداً على سؤال افتراضي إذا أتيح لحزبه الوصول للحكم هل يكون حكمه دستورياً أم أنه لا يعتمد على البرلمان؟ فكان جوابه أنّ الحزب "لا يؤمن بفائدة الحياة البرلمانية للأمة المصرية" وأنهم سيحكمون اعتماداً على "مجلس استشاري مؤلف من مختلف الكفايات وأصحاب المراكز الرئيسة للبلاد"!

لعبة تبادل الأدوار بين الأحزاب المؤيدة للديموقراطية والمعارضة في مصر في العهود الماضية أثبتت أن الجميع على نفس المسافة من الممارسات القمعية في ترجمة حقيقية لتجربة (سجن ستانفورد) لعالم النفس الأمريكي (فيليب زيمباردو) التي حاولت محاكاة الواقع عبر تقسيم الطلبة لمجموعتين الأولى مساجين والثانية سجانين مع منح السجانين كافة الصلاحيات لفعل ما يحلو لهم، فكانت النتيجة أن تعامل السجانين بكل عسف وخشونة وعنف مع زملائهم المساجين.

ولا يخلو التاريخ المصري من نماذج مشرقة للديموقراطية أشرت لها في كتاب (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر)، لكن ما أتوقف عنده هنا في مقالي عند مظاهر إساءة استعمال الديموقراطية.

النموذج الأول: قصيدة القرع السلطاني للشاعر التونسي بيرم التونسي

"الْبِنْتِ مَاشْيَةْ مِنْ زَمَانْ تِتْمَخْطَرْ وِالْغَفْلَةْ زَارْعَةْ فِي الدِّيوَانْ قَرْعَ أخْضَرْ

تِشُوفْ حَبِيبْهَا فِي الْجَاكِتَّة الْكَاكِي وِالسِّتَّة خِيلْ وِالْقَمْشَجِي الْمَلَّاكِي

تِسْمَعْ قُولِتْهَا ... يَا وْرَاكِي وِالْعَافْيَة هَبْلَةْ وِالْجَدَعْ مِتْشَطَّرْ

الْوِزَّة مِنْ قَبْلِ الْفَرَحْ مَدْبُوحَةْ وِالْعَطْفَة مِنْ قَبْلِ النِّظَامْ مَفْتُوحَةْ

وِالدِّيكْ بِيِدَّنْ وِالْهَانِمْ مَسْطُوحَةْ تِقْرَا الْحَوَادِثْ فِي جَرِيدَةْ كَتَّرْ

يَا رَاكِبِ الْفَيْتُونْ وِقَلْبَكْ حَامِي حَوِّدْ عَلَى الْقُبَّةْ وِسُوقْ قُدَّامِي

تِلْقَى الْعَرُوسَةْ شِبْه مَحْمَلْ شَامِي وَابُوهَا يِشْبِهْ فِي الشَّوَارِبْ عَنْتَرْ

وِحُطِّ زَهْرِ الْفُلِّ فُوقْهَا وْفُوقَكْ وِجِيبْ لَهَا شَبْشِبْ يِكُونْ عَلَى ذُوقَكْ

وَنَزِّلِ النُّونُو الْقَدِيمْ مِنْ طُوقَكْ يِنْزِلْ فِي طُوعَكْ لَا الْوَلَدْ يِتْكَبَّرْ

دَا يَامَا مَزَّعْ كُلِّ بَدْلَه وْبَدْلَهْ وِيَامَا شَمَّعْ بِالْقِطَانْ وِالْفَتْلَةْ

وِلَمَّا جِه الأَمْرِ الْكَرِيمْ بِالدُّخْلَةْ قُلْنَا اسْكُتُوا خَلُّوا الْبَنَاتْ تِتْسَتَّرْ

نِـهَـايْـتُـه يِـمْـكِـنْ رَبِّـنَـا يْـوَفَّـقْـكُـمْ مَـا دَامْ حَـفِـيظَـة الْـمَـاشْـطَـة بِتْزَوَّقْكُمْ
دِي سُكَّرَةْ مَـالْطِـي دَاهْيَةْ مَا تْفَوَّقْكُمْ بَـسِّ ابْـقَـى سِيبَكْ مِ اللِّي فَاتْ دَا مْقَدَّرْ"

وقد قيل إنه قالها في علاقة جمعت الأميرة فائقة ابنة الملك فؤاد من زوجته الأولى شويكار، وحسين فخري محافظ القاهرة وعلى طريقة الأفلام العربية القديمة حاول الملك حجب الفضيحة بمحاولة تزويجهما، لكن حسين فخري رفض فأقنع الملك أخاه محمود بالزواج من ابنته مقابل منصب مرموق!! طبعاً القصة واهية لأنه وببساطة محمود فخري باشا هو ابن حسين فخري باشا، وليس أخاه، كما أن محمود فخري الشركسي الأصل كان محافظاً للقاهرة وأول وزير مفوض لمصر في باريس، بينما والده كان رئيس وزراء سابق لمصر لمدة ثلاثة أيام فقط، وشغل مناصب وزارية عدة وقد تزوج محمود فخري من الأميرة (فوقية فؤاد) وليس (فائقة)... وقيل أيضاً: إنّ القصيدة قيلت في الملكة (نازلي) زوجة الملك فؤاد وأياً كان المعنى بالقصيدة، فهو ما نسميه (سوء الأدب) وسوء استعمال الحرية والديموقراطية بالخوض في أعراض الناس ولو حوسب مثل هؤلاء لما اقترف من هم بعدهم مثل ما اقترف هؤلاء، فمثلاً نجد مصطفى أمين وبعد خروج الملك فاروق مباشرة ينشر مجموعة من المقالات تحت عناوين: "خطابات فاروق الغرامية" و"كيف أنكر فاروق ابنته" و"ابني مجنون" و"فاروق ابن 7

أشهر" و"مكتب الملك السابق مملوء بالتماثيل الفاضحة. فاروق يحتفظ بختمي علي ماهر وأحمد حسنين. بخور وأحجبة الحب والغرام" أمثلة صارخة للخوض في الأعراض والفجر في الخصومة بما لا يصح قوله وإذاعته، وللأسف أصبحت هذه أمثلة ونبراساً للمدارس الصحفية التي تدرس ويغزل على منوالها بعد ذلك!!

النموذج الثاني: صحيفة (حمارة منيتي) والتي أصدرها ضابط الجيش المفصول وأحد الأعيان محمد أفندي توفيق منذ عام **1898** وحتى توقفت عام **1905** ثم عادت باسم جديد هو (الموقوذة) وربما توقفت بعد وفاته عام **1916** وحول سبب تسميتها بذلك أن صاحبها كان له صديقة تأتيه على الحمارة وكان موعدها هذا أغلى أمنياته!!

رسالة الجريدة وموضوعاتها هي "جريدة هزلية أسبوعية فكاهية، تشتمل على ضحك ولعب، ومفارقات كوب في كوب، ورقها شناوي، وحبرها قطاوي، وجنسها حصاوي، وكلامها من عند الحاوي، ما يقرؤها إلا الغندور، ولا يحملها إلا البعرور، صاحبها فنجري، والأنس فيها علقايم، والحظوظ علعايم، والأزجال نبرها، والتهاويس يا محلاها!"

وقيمة الاشتراك في "حمارة المنيات أربعين قرش صاغ وبلاش وجع دماغ، خلونا كده حبايب" و"كل عبارة أو إشارة باسم الحمارة، ومصحوبة باستمارة ونشر الإعلانات يكون بالممارسات وبموجب خد وهات".

وقعت الصحيفة في سقطة مهنية حينما فبركت صورة للشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية تظهره في حديقة في أوروبا وتحيط به أربع سيدات سافرات، وجاءت الصورة للسخرية من الشيخ ومطالبته بالرحيل من منصبه في أعقاب فتواه بجواز لبس البرنيطة وصدر حكم لصالح الشيخ بإغلاق الجريدة وسجن صاحبها ثلاثة شهور.. الطريف أنه وبعد سنوات قررت هيئة كبار الأطباء المصريين برئاسة علي إبراهيم بيك عميد كلية الطب في **2** يوليو **1926** أن الطربوش وهو من الميراث العثماني البغيض لباس رأس غير صحي ووضعت مواصفات صحية لا تتأتى جميعها إلا في القبعة.

الحقيقة أنّ سيرة الإمام محمد عبده تستحق الإشادة والفخر لا السخرية فهو ممن تصدوا لتصريحات مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا في جريدة «الجرنال» الباريسية، وقد استفزه ما نقله عن المسيو كيمون في كتابه (باثولوجيا الإسلام): من "أن المسلمين وحوش ضارية وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع وأن الواجب إبادة خمسهم والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر"، فرد عليه الإمام رداً مفحماً زاد عليه بكتابه "الإسلام بين العلم والمدنية".

كما كان الإمام رجلاً منفتحاً على الثقافات الأخرى عاملاً على إيجاد نقاط للاتفاق والتلاقي بين الديانات والعيش سوياً من أجل سعادة البشرية

جمعاء، وهو ما جعله يرسل للأديب الروسي ليو تولستوي صاحب "حكم النبي محمد" رسالة أرسلها بالبريد عام **1904** ليشد من أزره وكان وقتها في ضيق من الاضطهاد الفكري يقول فيها: "أيها الحكيم الجليل موسيو تولستوي: لم نحظَ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووقفك على الغاية التي هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسك، وسعياً يبقى به ويربي جسمه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم. ونظرت نظرة في الدين مزقت حجب التقاليد، ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل؛ لتحمل نفوسهم عليه، فكما كنت بقولك هادياً للعقول، كنت بعملك حاثًّا للعزائم والهمم، وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون؛ كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون، وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء، كان مداداً من عنايته للضعفاء الفقراء، وإن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد، هو هذا الذي

سماه الغافلون بالحرمان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم. هذا؛ وإن نفوسنا لشيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام عمرك، وإنا نسأل الله أن يمد في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتح أبواب القلوب لفهم قولك، ويسوق النفوس إلى التأسي بك في عملك، والسلام. مفتي الديار المصرية محمد عبده. إذا تفضل الحكيم بالجواب فليكن باللغة الفرنسية، فأنا لا أعرف من اللغات الأوروبية سواها..." ليرد عليه تولستوي بخطاب شديد التقدير يقول فيه: "المفتي محمد عبده صديقي العزيز.. تلقيت خطابك الكريم الذي يفيض بالثناء علي، وأنا أبادر بالجواب عليه مؤكداً لك ما أدخله على نفسي من عظيم السرور حين جعلني على تواصل مع رجل مستنير، وإن يكن من أهل ملة غير الملة التي ولدت عليها وربيت في أحضانها، فإن دينه وديني سواء لأن المعتقدات مختلفة وهي كثيرة، ولكن ليس يوجد إلا دين واحد هو الصحيح، وأملي ألا أكون مخطئاً إذا افترضت، استناداً إلى ما ورد في خطابك، أن الدين الذي أؤمن به هو دينك أنت، ذلك الدين الذي قوامه الإقرار بالله وشريعته والذي يدعو الإنسان إلى أن يرعى حق جاره، وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه. وأود أن تصدر عن هذا المبدأ جميع المبادئ الصحيحة، وهي واحدة عند اليهود وعند البرهمانيين والبوذيين والمسيحيين والمحمديين.

واعتقادي أنه كلما امتلأت الأديان بالمعتقدات والأوامر والنواهي والمعجزات والخرافات تفشى أثرها فى إيقاع الفرقة بين الناس، ومشت بينهم تبذر بذور العداوة والبغضاء. وبالعكس كلما نزعت إلى البساطة وخلصت من الشوائب اقتربت من الهدف المثالي الذي تسعى الإنسانية إليه، وهو اتحاد الناس جميعاً. من أجل ذلك ابتهجت بخطابك ابتهاجاً غامراً، ووددت أن تقوى بيننا أواصر القربى والتواصل. تفضل أيها المفتي العزيز محمد عبده بقبول وافر التقدير".

نعود للقضية والحقيقة أن سلوك الجريدة سواء مع الشيخ أو مع غيره لا يليق حتى وإن كانت قضيتها عادلة؛ فعلاج قضية لا يأتي بأسلوب يجلب داءً مجتمعياً جديداً، واتباع أسلوب التنمر والسخرية من الناس في المجلات والمسارح والأفلام أضر بالمجتمع على مدار تاريخه ودمر سلوكياته، والغريب أنك تجد مسلسلاً ما وصل عدد أجزائه الثمانية وتحت شعار تربوي وقيمي ومع ذلك لا يكف عن التنمر والسخرية من خلق الناس تحت دعوى المزاح والضحك.

ما أتوقف عنده في هذا المقال أيضاً ما سمي (نهاية الديموقراطية في مصر) مع إزاحة الرئيس محمد نجيب وأن جمال عبد الناصر مول من ماله الخاص إضراباً لعمال النقل لرفض الديموقراطية..

والحقيقة أن ما صاحب ثورة يوليو من خلاف بين نجيب وباقي الضباط الأحرار وفي مقدمتهم جمال عبد الناصر ليس سوى خلافٍ على السلطة

والصلاحيات ليس إلا، لكنه سوّق للناس أنه صراع على الديموقراطية فلو كان الأمر متعلقاً بالديموقراطية لما عطل نجيب الدستور الذي قامت ثورته لحمايته من تلاعب الملك ولما وافق على إلغاء الأحزاب السياسية وإيقاف الحياة النيابية واحتفاظه بمنصب رئيس الوزراء، لكن كل ما حدث وباختصار شديد أن نجيب وجد نفسه قد خسر كل شيء، فقد تنازل عن منصب القائد العام للقوات المسلحة لعبد الحكيم عامر وجعل الداخلية لجمال عبد الناصر وحتى مسمى الرئيس صار يشاركه فيه عبد الناصر والذي أصبح يخاطب بالرئيس ونائب رئيس مجلس الوزراء معاً، فقرر نجيب أن يلعب بورقة الديموقراطية كورقة أخيرة ليوجدَ ظهيراً سياسياً وشعبياً من جماعات وأحزاب تسانده، كما كان الوضع في الماضي لكن الوقت كان قد مضى وأصبحت كافة السلطات في يد عبد الناصر لينتهي الأمر بشكل درامي عادة ما يرافق هذا النوع من الثورات على امتداد التاريخ.

****

ويبقى الأثر

حفيدة متعاظمة الجانب وسيدة أرستقراطية اجتماعية مرموقة. جمعت ما بين الجمال والثقافة وقوة التأثير كانت رحلتها مثيرة بين الآستانة وباريس ومصر وتونس... استطاعت بصالونها الثقافي أن تبني وعياً ثقافياً مختلفاً... تباينت حولها الآراء كشأن أي شخصية ثقافية محط اهتمام واتهام.

والدها كان واحداً من الأمراء المثقفين، وقع عليه ظلم كبير؛ فأصبح أيقونة لمناهضة الظلم، وكما اختلف مع أكبر رأس في بلاده اختلف مع أكبر رأس في حواضر العالم الإسلامي، وأعلن خلافه معه على الملأ وأنشأ حزباً سياسياً للدعوة للحرية.

أما الجد فكان فاتحاً عظيماً وفي نفس الوقت ظلوماً منغلقاً ومن الجد نبدأ رحلتنا.

إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا، وقيل ابنه بالتبني أو ابن زوجته الأولى أمينة هانم، وتربى في كنفه وكان محمد علي باشا قد تزوج مرتين الأولى أمينة هانم ابنة علي باشا الشهير بمصرلي وأنجب منها أبناءَه، والزوجة الثانية فرنسية هي ماه دوران هانم أو أوقمش قادين ولم ينجب منها.

كان إبراهيم باشا هو صاحب الحملات المصرية الناجحة التي هزت أرجاء القسطنطينية، لكن في حياته الخاصة كما يصورها نوبار باشا غريب

الأطوار مدمن على الخمور لا ينام الليل، وقد أرجع ذلك في حديث له لنوبار باشا أن "الرجال الذين قتلهم في الشام يجيئون لإيقاظه من نومه ليلاً". كان إبراهيم باشا لا يحظى بأي تعاطف شعبي أو محبة جماهيرية ولا حتى لدى والده في نهايات عمرهما.. وقد أوردت في كتابي (مرآة التاريخ) بعضاً من مظاهر الضيم على الأهالي من ممارسات إبراهيم باشا، ويحكي الجبرتي عن وفاة ابنٍ لإبراهيم باشا بقصر الجيزة جراء مشاجرة بين جارية سوداء وأخرى بيضاء فتعامل مع الأمر بقسوة شديدة، بأن حبس الجواري الخمس أو الست الحاضرات المشهد، وأمر بخنقهن وإلقائهن في البحر. ويروي نوبار باشا عن رحلته مع إبراهيم باشا للآستانة عام **1848** وكان يحظى بكراهية كبيرة هناك باعتباره مارقاً قديماً، وكانت السفينة التي تقلهما قد تأخرت لشدة الأنواء، فظن إبراهيم باشا أن الضباط هم السبب في تأخرها فهم بإغراقهم جميعاً لولا تدخل نوبار بحسب كتاب نجيب مخلوف (نوبار وما تم على يده) طبعة **1903**.

كان محمد علي باشا يؤمن بالخرافات وكذلك إبراهيم باشا وزاد عليهما سعيد باشا غرامه بتحضير روح أبيه يومياً للتباحث معه في أمور الدولة ولمَ لا؟! وقد كان هذا زمن السحرة أمثال الشيخ عبد القادر المغربي، وقد جاء ذكر قدراته الخارقة في كتاب أدوارد لين: (المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم).

نعود لإبراهيم باشا مرة أخرى والذي نازعته سكرات الموت لثلاث ساعات وأدخل عليه ابنه الصغير مصطفى فاضل، وذلك بحسب رواية نوبار باشا وأغمض عينيه متحسراً على تركه لابنه لمصير مجهول وقد كان.

حينما تلقى محمد علي باشا خبر وفاة ابنه قال: (كنت أعرف، لقد حبسني، كان قاسياً معي، لقد عاقبه الله وأماته، لكنّني أجد لكوني أباه من الواجب أن أترحم عليه وأدعو له الله) وكان الباشا الكبير قد أصيب بالزهايمر في أواخر أيامه، واتسعت الفجوة بينه وبين ابنه وكلا منهما أصبح يخشى على حياته من الآخر.

ومن صراع الأب والابن إلى صراع الإخوة الأعداء، إذ أن الغرابة تملكت من كل ما يحيط بالرجل من شؤون ذلك أنه أنجب من كل زوجة له ولداً وهو ما أشعل نيران الغيرة بينهم، فابنه أحمد رفعت من (شيوه كار قادين) والأحق بالعرش بعد عمه سعيد باشا لقى حتفه في حادث غامض بالقطار عام **1858** قرب كفر الزيات وقيل إن خلف الحادث سعيد باشا لتفضيله إسماعيل عليه وقيل وراء الحادث أخوه إسماعيل نفسه طمعاً في الحكم.

وسواء أكان الحادث قدرياً وهو ما أميل إليه أو كان مدبراً، فلا تأخذك الدهشة عزيزي القارئ من حوادث القطارات في هذا الوقت المبكر فهذه الحوادث كانت كثيرة كعصرنا وحتى قبل ثورة عام **1952** بأسبوع تقريباً تحديداً في **16** يوليو **1952**، حملت جريدة المصري عنوان "وقع انقلاب

قطار إكسبريس دمياط بركابه قبيل محطة طنطا مما أسفر عن وفاة أربعة وإصابة **8** والخسائر قدرت ب **50** ألف جنيه. وزير المواصلات وكبار رجال الأمن بمكان الحادث". إنها مصر ماضيها كحاضرها وللأسف الشديد.

المهم تمر السنوات ويجلس إسماعيل على عرش مصر وهو ابن إبراهيم باشا من زوجته الشركسية هوشيار قادين (خوشيار هانم الوالدة باشا وهي أخت السلطانة برتفنيال زوجة السلطان العثماني محمود الثاني وأم السلطان عبد العزيز الأول) فكان شغله الشاغل الخلاص من أخيه الأمير (مصطفى فاضل) ابن (ألفت قادين) زوجة أبيه بأي شكل وهو ما جعله ينفق ببذخ لدى الباب العالي لتعديل نظام الحكم من الأكبر في ذرية محمد علي باشا إلى الأكبر والأرشد في ذريته ليقطع الطريق على أخيه كما اشترى كافة أملاكه العقارية في مصر بعد مفاوضات شاقة باثنين مليون جنيه إنجليزي وثمانين ألف جنيه إنجليزي وتم التوقيع على عقد البيع بباريس عام **1866**.

وللحقيقة فقد خسرت مصر أميراً مثقفاً وصاحب مبدأ كان قاب قوسين أو أدنى من عرشها هو الأمير (مصطفى فاضل) والذي أقام في الآستانة حيث تدرج في المناصب الوزارية، فأصبح ناظراً للمعارف، ثم ناظراً للمالية وتسببت رغبة مصطفى فاضل في الإصلاح في الاستغناء عن خدماته ليرفع رسالة للسلطان عبد العزيز (إليه ينسب شارع عبد العزيز التجاري في القاهرة) عام **1866**، شديدة القوة في أهدافها والحسم في معانيها ولكن

طبعاً من باريس وليس من الآستانة!! وننقل أجزاء منها لأهميتها معتمدين على الترجمة التي قام بها للرسالة "فقيد العلم والعلماء المرحوم المبرور أحمد فتحي زغلول" تحت عنوان: "من أمير إلى سلطان" وعُني بتصحيحها وطبعها "توفيق الرافعي" عام **1922**. يبدأ الأمير الرسالة بقوله: "يا صاحب الجلالة.. ما أصعب وصول الحق إلى حظيرة الملوك والأمراء.. البطانة تحجبها وتخفيها والملوك سكارى بخمرة الملك منصرفون عن الصواب بلذة السلطان" وأنه برسالته يصف الدواء الذي "يشفينا" فالظلم اشتد بالناس مسلمين ومسيحيين يقتسمون "صنوف الذل" و"يشربون معهم كأس الهوان" والكل يستجير من عسف الولاة والحكام المعينين من قبل الباب العالي في دولهم، فالناسُ طائفتان: "حاكم يظلم يدعي أن سلطانه من سلطانك" وليس له رادعٌ و"محكوم يظلم" ولا شفيع له "حتى يهوي إلى حضيض الذل بما يساء إليه". وأن الظلم أدرك الترك أيضاً العنصر الوطني فهم "أشد رعاياك تأثراً بالاستبداد".

وإنّ اعتماد الدولة أصبح على "الخراج القليل" فجميع القطاعات الاقتصادية في الدولة قد هوت "الزراعة، ثم التجارة، ثم الصناعة".

هذه قائمة الأمراض العثمانية وقد عرفناها جميعاً، ويمكن العودة لكتابي (على هامش التاريخ والأدب) وحلقة عبد الرحمن الكواكبي الذي يذهب إلى نفس التشخيص لأمراض الدولة العثمانية.

وماذا عن روشتة الشفاء الذي وعدنا بها الأمير مصطفى فاضل؟! يقول الأمير: إنه "لا سبيل إلا التعليم" والذي لن يتحقق إلا بالحرية أولاً فالحرية "أول مربٍ للأمم "وإنّ "الأمة المستعبدة تحتقر العلم لأنه لا يفيدها" وليس الحل بكثرة المدارس كإطار شكلي، ويدلل على رأيه بنماذج أوروبية كسويسرا "التي لا ترى فيها رجلاً أميّاً" وفرنسا التي تبدل بها الحال بعد الحرب السبعينية، وأصبحت دولة صناعية كبرى فالحرية "تحيي الأمم حتى الحياة المادية" ويخلص من ذلك بالقول "ليس في هذا الوجود سياستان مسلمة ومسيحية. العدل واحد وما السياسة إلا العدل يجري على يد السلطان".

سأتوقف هنا عند مقارنة أرى أنها شديدة الأهمية في تأسيس الدول وهي سياسة تذويب الفوارق بين عناصرها والذي نجحت فيه دولة محمد علي باشا بالمقارنة بالباب العالي، فلو عدنا لمذكرات نوبار باشا نجد قصة طريفة تخدم هذا المعنى، فقد أهدى كبير السياس فرساً معيباً لأحد أمناء محمد علي باشا وكان مسيحياً، وحينما علم الباشا بذلك غضب غضباً شديداً وسأل كبير السياس عن السبب في فعلته هذه فقال: "الذي اخترته يا سيدي حسن جداً بالنسبة لكافر"، فرد محمد علي بحزم: "إن الكافر هو الذي لا ينفذ أوامري"، وأمر بمعاقبته بالضرب بالعصا على قدميه.

مثل هذه الخطوات تقوي دعائم الدول وإن بدت صغيرة في بدايتها إلا أنه مع الوقت تصبح مراعاة الجوار بين الطوائف الدينية أمراً حتمياً ومنظماً

بالقانون، وحينما أعود للمكاتبات التي دارت بين غبطة الحبر الجليل الأنبابؤانس البطريرك وحضرة صاحب الدولة محمد توفيق نسيم باشا رئيس وزراء الحكومة المصرية ووزير الداخلية في أبريل عام **1935**، أجدها خير مثال على مراعاة الشعور والآداب بين الأديان وتتلخص المكاتبات أن بعض المسيحين الذين يريدون إشهار إسلامهم يستصحبون معهم إلى مقر الجهة الإدارية العشرات أو المئات من الأشخاص أغلبهم من العامة ملتفين حولهم لعمل تظاهرة أو موكب (لزفته) في شوارع البلدة بما يحول دون تمكن مندوب المطرانية من تأدية الواجب عليه بالحرية اللازمة، فإعطاء مهلة للمطرانية يمنحها الفرصة للتحقق من شخصية الطالب وتبعيته وأسباب ارتداده وإن كان هناك أسباب كيدية كالهروب من حكم نفقة أو التخلص من زوجته والزواج بأخرى، فضلاً عن بعض النصائح اللازمة فإن لم يقبلها أعادته المطرانية لإتمام إجراءات إسلامه وهو ما يمثل صوناً لكرامة الأديان فكان قرار توفيق نسيم بمنع هذه المظاهرات أو المواكب خاصة أنها ليست من الدين الإسلامي في شيء.

نعود إلى الرسالة والتي تنبأت مبكراً بانهيار الدولة العثمانية، حينما أستشهدُ بأن كثير من ساسة فرنسا وانكلترا وإيطاليا يقولون: "تلك حكومة لن تقدر على إصلاح نفسها فزوالها محقق".

سبحان الله فجوة ثقافية شاسعة بين الأب إبراهيم باشا وبين الابن مصطفى فاضل كالمسافة بين السماء والأرض.

وعلى نفس خطى الأمير مصطفى فاضل صارت ابنته (نازلي فاضل) والتي احتلت مكانة مرموقة في الوسط الأدبي والثقافي وأحدثت حراكاً مؤثراً قبيل ثورة عام **1919**، حيث أقامت أول صالون ثقافي بمصر ضم صفوة المجتمع المصري كسعد زغلول باشا والذي تزوج من صفية هانم ابنة مصطفى باشا فهمي رئيس الوزراء بناء على ترشيحها كما ضم الصالون الأمام محمد عبده وقاسم أمين، ويقال أنها لعبت دوراً كبيراً في تحول قاسم أمين من الدفاع عن التقاليد الشرقية فيما يتعلق بالمرأة إلى المطالبة بتحريرها ذلك أن قاسم أمين في بدايته استفزه كتاب (سر تأخر المصريين) للدوق الفرنسي داركور ساخراً من حجاب المصريات وبقائهن في البيوت وأنّ المثقفين المصريين صامتون أمام ما يحدث، فرد عليه قاسم بكتاب (المصريون) باللغة الفرنسية مدافعاً عن حجاب المرأة الشرقية وتعدد الزوجات ومهاجماً السفور والاختلاط وهو ما اعتبرته الأميرة هجوماً على شخصها وفي سبيل إرضاء الأميرة قام قاسم أمين بكتابة كتاب (تحرير المرأة) والذي طبع على نفقتها وكذلك كتاب (المرأة الجديدة) والكتابين أثارا موجة من الغضب الشعبي خاصة في أوساط المتدينين وواضح أنهما كتبا على عجل، ولم يكن صاحبهما على قناعة تامة بما كتب وبتأثيراته ويكفي أن زوجة قاسم أمين

نفسها أوضحت في حوار مع مجلة "الاثنين والدنيا" في عددها رقم **385** الصادر بتاريخ **27** أكتوبر **1941** أن زوجها كان محافظاً، فكان يعلم بناته في المنزل ويرفض ذهابهن للمدارس، وأنها كانت لا تسمح لهن بالاستحمام أثناء وقت المصيف برأس البر إلا في الساعات المخصصة للسيدات وأنها استمرت في ارتداء الحجاب حتى بعد وفاة زوجها وأن دعوة زوجها للسفور لا تعني "اجتراع الخمور والرقص ولعب القمار" ووضع المساحيق ودعت بالتبرع بأثمان هذه المساحيق للبؤساء!! واختتمت اللقاء بقولها: "إن المرأة التي لا تحجب وجهها بهذه المساحيق أجمل في نظري من تلك التي تلبس قناعاً منها يخفي ما لها من جمال طبيعي".

نعود للأميرة والتي أخذت حذو أبيها في إرسال رسالة مشابهة للسلطان عبد الحميد الثاني في أكتوبر **1896** قوبلت من السلطان بشيء من سعة الصدر، وقد أنعم عليها بوسام شفقت من الدرجة الأولى كما تمتعت بعلاقة متميزة مع اللورد كرومر فيما تصادمت مع الأسرة العلوية والخديوي عباس حلمي الثاني. هذه العلاقات الشائكة جعلتها موضع شك من بعض الوطنيين مثل الزعيم محمد فريد والذي اتهمها بالعمالة المزدوجة لدى الباب العالي وإنجلترا ضد الخديوي عباس حلمي الثاني ومصر وشبابها! السؤال على الهامش: هل كانت مسألة الاتصال بالإنجليز ودعوتهم للمجالس في ذلك الوقت تهمةً أو شيئاً مشيناً؟! بالعكس كان مدعاة للفخر

فانظر مثلاً وجيهة هانم كريمة سعادة محب باشا والتي تحدثنا عن مقتلها في كتاب (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) بحسب تقرير عنها بمجلة (كل شيء والعالم) في **5** نوفمبر **1928** كانت "سيدة صالون كاملة كما يقول الإفرنج عن مثيلاتها" تجيد الألمانية والإنجليزية والفرنسية وتنفر من الزواج الذي يكبل حريتها، كانت موضع إعجاب اللورد كتشنر صديق أبيها على الرغم من نفوره من النساء "كان يعجب بمواهبها ويرتاح إلى مجلسها"، وكذلك السر رونلد ستورس السكرتير الشرقي السابق لدار المندوب السامي البريطاني، ثم حاكم قبرص بعد ذلك كان معجباً بذكاء وجيهة هانم وتفوقها... كما ترون المسألة كانت صداقات وإعجابات متبادلة بين الشرق والغرب.

نعود للأميرة والتي تزوجت مرتين الأولى من سفير الدولة العثمانية في باريس خليل باشا شريف والذي أصبح وزيراً للخارجية بعد ذلك، ثم من خليل بوحاجب الوزير الأكبر التونسي الثامن عشر ووزير القلم التونسي وشيخ تونس بعد ذلك وكانت تكبره بسنوات.

توفيت نازلي فاضل عام **1914** وهدمت سرايتها التي شهدت صالونها الثقافي ولم يبق من أثر العائلة سوى مسجد مصطفى فاضل بدرب الجماميز والذي أقامته والدته على أنقاض مسجد مملوكي متهدم شيده الأمير بشتاك

وهو من مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد ارتبط هذا المسجد بتلاوات الشيخ محمد رفعت الرائعة.

****

حوادث وقضايا الماضي غير السعيد؟!

يقولون إنّ مصر البلد الوحيد الذي لو عاد إلى الماضي لتقدم، والحقيقة أننا البلد الوحيد الذي لم يغادر الماضي، ولو أننا آمنا بأننا أمة تحبو في سلم التقدم وهجرنا مثالية الماضي الواهم واعتمدنا على سواعدنا كالأمم الناشئة التي بلا تاريخ لتقدمنا... إننا الأمة الوحيدة التي تتكلم في الماضي كثيراً بشكل مرضيّ ولا تنظر لواقعها واستئصال بؤر مشاكله المتوارثة وجلب عوامل التقدم لكل مناحي الحياة فيها اجتماعياً وصحياً واقتصادياً وتعليمياً. في هذا المبحث سنبحر معاً بين أوراق الصحف القديمة نقرأ قضايا الماضي المنعوت بالجميل، لنكتشف أن قضايانا وقضاياهم واحدة وإن اختلفت المسميات وبعدت السنوات وقد حرصت في هذا المبحث أن تكون القضايا جديدة وليست مطروقة قدر الإمكان ذلك أني مللت مثل ما مل آخرون من قضايا قتلت بحثاً مثل ريا وسكينة والخط والسفاح وأدهم الشرقاوي وشكوريل والرجل الذي باع الترام وغيرها.

من منا لم يُسرَقْ حذاؤه ولو مرة خاصة في مناسبات الأعياد؟! إنها مسألة تطال حتى أولي الأمر، وآخرها حاكم دارفور مني أركو مناوي أثناء أداء صلاة الجمعة بمسجد السلطان بالفاشر ومن منا لم ينشل ولو مرة في حياته؟! لقد نشل هاتفي اللوحي قبل سفري للخارج بأيام.. في محيط عملي

بحكم كوني صيدلي كنت دائماً ما أجد موظفي الأمن في الطرقات لملاحظة المرضى خشية دخول النشالين وسطهم للاستيلاء على متعلقاتهم، وكنت أسمع صرخات من سرقت نقودهم البسيطة وأنا حزين لما وصلنا إليه مستعطفاً صور الماضي لتزيح الحاضر الحزين ولكن هيهات... لقد ظننت أن هذه الحوادث حديثة لكن حينما طالعت نشرة وزارة الداخلية نمرة **126** في **18** أغسطس **1927** والتي تسمى (غازتيه بوليسيه) عن جرائم محافظة مصر (المقصود القاهرة) وجدت العجب العجاب، فمثلاً سرقة فردة أسورة ذهب "مفتولة" من مدام ماريا أنجيلي وثمنها **15** جنيهاً نهاراً من يد المجني عليها، وذلك حال وجودها بمستشفى جلالة الملك في "وسط الازدحام لزيارة المرضى" (تصور!!).

لا شك أن النشال له نظرة في زبونه وهو ما يخبرنا به الشيخ محمد النشال العجوز الذي أمضى **38** سنة في السجن، وإذا به يعود إليه من جديد بعشر سنين أخرى لسرقته ثلاثة قروش وهي السرقة التي يصر أنها ملفقة ولا تتفق مع سجله في عالم النشل، وبحسب ما نشرته صحيفة البلاغ في **2** يوليو **1952** فهو "يعرف زبونه من مظهره" وبعدها يقدر بالتقريب " الفلوس اللي معاه" فإن "كان مظهره فالصو أسيبه ولا أتعبشي نفسي".

نعود للنشرة مرة أخرى وإلى عام **1927** ومن السرقات الطريفة سرقة "زوجين جزم أحمر غامق وأسود" من الملازم جيفري برايت بمعسكر الجيش الإنجليزي ثمنهما **2** جنيهاً (بالتأكيد عرفت لماذا خرج الإنجليز من مصر !!) وسرقة بيانو صغير من الخشب الأسمر غير صالح للاستعمال ثمنه **3** جنيهات من مدرسة الأرمن بشارع فم الترعة البولاقية وذلك بالتسلق وكسر النافذة بالقوة..

بالتأكيد إنّ التفاوت الطبقي في هذه الأزمنة وانتشار الفقر كان لهما تأثير بارز في نمو السرقات الناقمة وفي القتل العمد لبعض الأعيان ابتزازاً وانتقاماً ونختار عام **1917** وهو حافل بحسب مجلة اللطائف المصورة التي سنعتمد عليها في هذا الجزء فإن "الذي يتصفح الجرائد المصرية في هذه الأيام لا يكاد يأتي على آخر ما فيها من الأخبار حتى يشعر أن صدره انقبض واستحوذت عليه الكآبة والغم"، ومن هذه الحوادث ما سجلته المجلة في **23** يوليو **1917** حول مقتل "المرحوم جورج جدي" ليلاً في أراضي عزبته في أشمون وفي **6** أغسطس **1917** تطالعنا المجلة بخبر سرقة كنز كبير (خمسة إلى ستة آلاف جنيه نصفها نقود ذهبية وفضية وأوراق نقدية!!) من "سراي المرحوم إبراهيم سرى بيك" حيث استغل اللصوص ذهاب كريمتيه للقرافة ليلة العيد وربطوا البستاني لجذع نخلة حتى فارق

الحياة ومن الصحيفة ذاتها في **10** سبتمبر **1917** جاء مقتل "المرحوم عبد الله صيداوي" بالعصا والنبابيت والبلط والفؤوس ببلدة مزغونة (إحدى القرى التابعة لمركز البدرشين في محافظة الجيزة).

نتوقف هنا لنسأل سؤالاً من منا لم يشاهد حوادث القتل اليومية في مصر هذه الآونة الأخيرة ولم يحمّل المسؤولية عن العنف المستشري لمسلسلات العنف والبلطجة التي يمثلها بعض الممثلين وتغزو كل بيت وتحث الشباب على استخدام العنف؟! بالتأكيد الجميع متفق على دور هذه المسلسلات إلا أصحاب المصلحة منها. أتدري يا عزيزي القارئ أن (اللطائف المصورة) وعلى صفحاتها في **22** أكتوبر **1917** ساقت نفس هذا الاتهام ولكن للسينما وقتها فلم يكن وقتها لا تليفزيون ولا مسلسلات والاتهام نفسه أشار إليه كريم ثابت في مجلة الدنيا المصورة **1929**.

تعالوا بنا نحكي الأسباب التي قادت إلى هذه الاتهامات للسينما ففي **22** أكتوبر **1917** وتحت عنوان (جناية في الإسكندرية) تحكي المجلة أن أميل يزبك أفندي أقدم على سرقة مكتب المحامي المعروف خليل أفندي أورفلي مقلداً في ذلك أفلام السينما فلما قاومه المحامي أصابه بضربة من حديد على رأسه واستولى على مبلغ **230** جنيه. وضعت الصحيفة يدها على موطن الداء في هذه القضية وهو "تردده (تقصد المتهم) على دور السينما توغراف

المفسدة للأخلاق" التي تمثل "أدوار اللصوص والبوليس السري" ولا تنصرف عنا المجلة دون أن ترشدنا للعلاج وهو دور الوالدين في التنشئة والتربية والرقابة فتقول: "لو عني والداه في إصلاح خلقه الفاسد" لما بدرت منه هذه "الجناية الفظيعة"

فيما يخص كريم ثابت ففي معرض تحقيقه عن "مشاهدات وملاحظات في إصلاحية الأحداث" في مجلة الدنيا المصورة في **22** مايو **1929**، فقد نقل عن "حضرة الأستاذ فتح الله محمد المرصفي" ناظر مدرسة الإصلاحية ومراقب التعليم بمدارس مصلحة السجون أنه "قد ثبت للمشرفين على الإصلاحية أن السينما كانت عاملاً من أكبر العوامل في إفساد أخلاق السواد الأعظم من الغلمان الذين يعيشون فيها". وجهات نظر من الماضي والحاضر أرجو أن تؤخذ بعين الاعتبار لا نريد بها إلغاء الدراما بل ترشيدها لتكون معيناً على نشر الأخلاق والفضائل في المجتمع بدل من العنف والإفساد.

ولأن فترة العشرينيات والثلاثينيات حيث حكم الملك فؤاد وسيادة التيار المحافظ حتى ولو شكلياً، فلم يكن مستغرباً أن يكون لقضايا الحسبة وجود في هذا الزمن المبكر، ففي صحيفة وادي النيل في **3** يوليو **1932** وهي من مقتنياتي الخاصة حملت الصحيفة خبر أنّ "إدارة الأمن العام في وزارة الداخلية" صادرت كتاب "معضلات الدين" والذي يدرس في بعض المعاهد

الأجنبية وفيه "مطاعن شديدة "على الدين والنبي الكريم صلى الله عليه وسلم ولقوة شكيمة الدولة وقتها اعتذر مدير المعهد وأبدى أسفه لولاة الأمور وتم سحب الكتاب (الحمد لله لم يكن وقتها هذه الحفنة من العلمانيين التي تثير الجلبة من حين لآخر نصرة لكل ما ينال من الإسلام ونبيه).

وعن جرائم المخدرات ففي التقرير السنوي عن مكتب المخابرات العام للمواد المخدرة **1935** نجد قضايا مثل "قضية شحات ماجد مصطفى وأفيون مخفي داخل "عصا مقلوظة" وقضية عبد الرازق أحمد سليمان الشهير "بدقه" وأفيون مخفي داخل "كوز ذرة شامي" وفي تقرير لنفس الجهة عام **1933** رصد طرق تهريب الحشيش وأطرفها وضع الحشيش داخل كيس مشمع به ثقالات ليغطس في الماء وحبل متصل بعوامة للدلالة على محل الكيس تحت الماء وحيل أخرى مثل كنكة بلدي ذات يد مجوفة لتخبئة المخدرات وألطفها بانتوفلي الحشيش!!

وعن حوادث السطو المسلح فقد تحدثت (اللطائف المصورة) في **9** فبراير **1920** عن لصوص قطعوا "خط السكة الحديد الصعيدي بين بوش واشمنت (قرى تابعة لمركز ناصر في محافظة بني سويف) وعطلوا سير أكسبريس الصعيد" وهجموا عليه بقواتهم المسلحة وكان في القطار خمسون ألف جنيه لم يسلبوا منها سوى **3750** جنيه مصري!! حيث شاء القدر أن

يكون على القطار مجموعة من الجنود لحراسة بعض المساجين أثناء نقلهم تصدوا للصوص والطريف هو ولادة امرأة حامل قبل الأوان كانت من بين الركاب من فرط الهلع.

نأتي على ذكر قضايا الأحوال الشخصية، وسأعتمد هنا على كتاب (حاضر المصريين أو سر تأخرهم) عام **1902** للأستاذ محمد عمر، والذي يورد قبسات من القضايا في مطلع القرن المنصرم، فعن تبعات تعدد الزوجات وآفة صراع الضراير مثلاً أحد فلاحي مديرية البحيرة وكان متزوجاً، وفجأة خطر له أن يعيد مطلقته السابقة لعصمته وأن يجمع الزوجتين في بيت واحد، وهنا كانت الطامة الكبرى فشعور المطلقة السابقة بالدسائس التي تحيكها لها ضرتها الزوجة جعلها تقدم على وضع السم في الحلوى لابن ضرتها فيموت فتنتقم الزوجة بوضع السم لابن المطلقة هو الآخر فيموت وجاء حكم محكمة الإسكندرية على المرأة المطلقة بالسجن **15** عاماً، فيما برأ المرأة الأخرى لعدم كفاية الأدلة. أجدني هنا مخالفاً للأستاذ محمد عمر في رد مثل هذه القضايا لتعدد الزوجات تلك السنة الناجعة والمفيدة في عمار المجتمع ولكن مرد هذه القضايا للجهل وإهمال حال التعليم في القرى والمناطق العشوائية.

نأتي لنوع آخر من القضايا بالكتاب وهي تلك المتعلقة بالانتحار، فقد كان سوء معاملة زوج لزوجته بمنطقة الدرب الأحمر عام **1900** سبباً لإقدامها على محاولة الانتحار بالكبريت المذابة رؤوسه في الماء لكن تم إسعافها..

بالتأكيد يا عزيزي القارئ سمعت في عصرنا عن قضايا تبادل الزوجات لكن في العهود القديمة لم تكن لتتخيل حدوث أمر كهذا أو حتى التفكير فيه، لكن الأستاذ محمد عمر أبى ألا أن يصدمنا في كتابه فينقل عن صحيفة الوطن في **6** مارس **1901** عدد **1919** واقعة شديدة الطرافة وهي أن أحد أهالي "سنباط" قد حضر إلى المحكمة الشرعية طالباً الإفتاء في أنه يعشق زوجة أحد أصدقائه والصديق مفتون بزوجته!! واتفقا على مبادلة الزوجات مع العوض!! ونظراً لأن زوجته حامل فيرغب عوض عن حملها حمارة زيادة على الزوجة المبادل بها!! (حقاً حادثة تتجاوز حدود المنطق والمعقول وتعكس منزلة المرأة المتدنية).

ويحكي الكتاب أيضاً عن فساد المأذونين الشرعيين وأن أحدهم قبلَ تزويج سيدة من رجلين مقابل الحلوان وبقاء الأمر سراً!! وأن آخر عقد لرجل على امرأة بعد أن طلق ابنتها!!

نأتي لقضايا الآداب.. وقد ارتبط شارع الهرم بالعديد من قضايا الآداب في الثمانينيات والتسعينيات، وذلك لكثرة الملاهي الليلية به، ولكن ماذا عن الشارع وارتباطه بالآداب في زمن الآداب الجميل؟! من صحيفة البلاغ في

2 يوليو **1952** وخبر عن ضبط صاحب العزة الأميرالاي محمود عبد الجواد المصري بيك مدير مكتب حماية الآداب العامة بوزارة الداخلية لفتاة في نحو العشرين من عمرها وتعمل حكيمة في أحد المستشفيات بصحبة أحد الشبان ويعمل موظفاً فنياً في إحدى المصالح وهما "يتسكعان" في شارع الهرم وحفاظاً على سمعة الفتاة قرر عدم تحرير محضر ضدها والاكتفاء بإخبار ولي أمر الفتاة لحمايتها والمستشفى الذي تعمل به فضلاً عن المصلحة التي يعمل بها الشاب.

وفي صحيفة المصري في **20** يوليو **1952** حملت لنا الصحيفة خبر القبض على ما أسمته "أخطر شبكة للدلالة في سوق الأعراض بالقاهرة" يتزعمه شخصان الأول انتحل صفة دكتور وأسمى نفسه بذلك، والثاني تلميذه التابع "عبده بيك" واتخذا لنشاطهما محلاً بإحدى المقاهي الواقعة بميدان محمد علي الكبير وراحا يقدمان "النساء الساقطات لطالبي المتعة الحرام" مقابل ثمانية جنيهات "خمسة منها للسيدة الساقطة وثلاثة للقواد الدكتور أو تلميذه"، وقد ضمت القضية من الساقطات تلميذة بإحدى مدارس طنطا كان يحتكرها شاب ويؤجر لها مسكناً أنيقاً بالدقي لممارسة الحرام، وكذلك سيدة شابة من إحدى العائلات المحترمة وهي مطلقة أحد الأطباء المعروفين!! فضلاً عن زوجة عبده بيك والتي كان يضربها بالسوط لإرغامها

على الممارسة... وللمزيد حول قضايا البغاء في مصر يمكن الاطلاع على كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر).

ومن حوادث الإهمال الجسيم في هذا الزمان غير السعيد، سقوط سقف جامع أبي العلاء في بولاق وموت المصلين بحسب (اللطائف المصورة) في **24** يوليو **1922** وتجارة الجثث والهياكل كما جاء في مجلة (الدنيا المصورة) في **18** مايو **1932**.

نعرّج للقضايا المهنية وأستهلها من عدد نادر من مقتنياتي من صحيفة وادي النيل في **3** يوليو **1932** وقضية صيدلانية بدائرة قسم الجمرك بالإسكندرية عرضت على محكمة المنشية الجزئية بطلها إجزاجي (لقب الصيدلي قديماً) يدعى (مجرذدتشهادهاتس فارمليان) تلاعب في عهدة الأدوية المخدرة من الكوكايين والأفيون والحشيش في الفترة من **7** ديسمبر **1930** إلى **3** سبتمبر **1931**.

الطريف في القضية أن صاحب الصيدلية عبد المجيد أفندي يوسف كان مختصماً للإجزاجي المتهم مما يعني أن كشف الواقعة ربما جاء بناء على شكوى صاحب الصيدلية، وعلى أساسه كان تقرير التفتيش الفني والذي رصد عدم وجود ترخيص وعدم القيد في السجلات وسرقة العهدة. الجميل في الخبر هو أن القضاء لم يفرق بين مصري وأجنبي فجاء الحكم رادعاً وهو

حبس المتهم ثلاث سنوات وتغريمه مبلغ خمسمائة جنيه، وهو مبلغ كبير في الثلاثينيات علاوة على إيقافه عن العمل ثلاث سنوات ودفع **25** جنيهاً تعويضاً مدنياً لصاحب الصيدلية. ولكن هل صاحب الصيدلية كان صيدلانياً؟! ربما نعم وربما لا.. ذلك أنه في العهد الملكي كان تَملُّك الصيدليات لأي شخص شأن أي مشروع استثماري آخر، أما إدارة الصيدلية والصرف؛ فالمسؤولية تقع على عاتق الصيدلي أو الإجزاجي.

ولأننا في الحقل الصيدلي فأين قضايا الغش الدوائي؟! للأسف هذه الفترات كانت فترات الفوضى الدوائية باقتدار فالدواء بين أدوية مركبة تخضع لمهارة الصيدلي المسؤول والمسألة متروكة لضميره المهني إن شاء أعمله وإن شاء أغفله، كما في فيلم (حياة أو موت) والصيدلي حسين رياض!! أو منتجات شهيرة تصنع في فابريكات لا تحمل عبواتها أية معلومات عن محتواها فمثلاً دواء "الفسفورين" وإعلان مصطفى صادق الرافعي عنه في مجلة المصور بعددها **244** الصادر في **14** يونيو **1929** والذي تحدثنا عنه في (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) كمقوٍ للأعصاب لم تفلح محاولاتي في معرفة تكوينه إلا عبر بحث منشور في المجلة الطبية البريطانية عام **1911** من أنه يتكون من "الكينين سلفات وحمض الكبريتيك والفسفوريك المخففين وكحول وماء!".

وكان هناك اتجاه دعائي لنشر المفاسد تحت ستار زائف من النفع الصحي فإعلانات البيرة كانت تحمل أنها المشروب الروحي الوحيد الذي يحلله الأطباء، فهي خفيفة على المعدة وتفيد فقراء الدم ومصابي التدرن الرئوي وعسر الهضم، وتسمن الأجسام النحيفة ومسكن للجهاز العصبي!!

ومن عجائب هذه الأزمنة في الشأن الصحي الترويج أيضاً أن "التدخين أقوى مانع لدوار البحر الذي يصيب راكبي البواخر ويمنع دخول الوطاويط" بحسب مجلة (كل شيء والعالم) في **8** أكتوبر **1928.**

لا تعجب يا عزيزي فقد كان زمناً للمفاهيم المغلوطة مثل "أنّ الرقصَ فنٌّ سامٍ ورياضة النفس على الأخلاق السامية وأنه زاد تقدم الأمم في الأخلاق" بحسب مقال الراقصة الروسية كرسفينا في مجلة (كل شيء والعالم) عام **1928** ثم احتفاء المجلة بزيارة الراقصة "آنا بافلوفا" لمصر في نفس العام لذلك لا تندهش يا عزيزي من الإعلانات الطبية الغربية كإعلان شركة باير الألمانية عن الأسبرين في علبته الخضراء من خلال الراقصة "ليلى" والتي ترقص منهكة لكن بعد قرصين من الأسبرين مذابين في الماء زال الألم وعادت ترقص بإبداع!!

من باب الشيء بالشيء يذكر فعلى النقيض كانت جهود صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون المثمرة في تبني نشاط جمعية منع المسكرات المركزية بالقاهرة وبرياسة شرف صاحب السعادة محمد طاهر باشا وجاء في

تقريرها من يونيو **1935** إلى آخر مايو **1937** دعوتها لطبع ونشر كتب مدرسية وثقافية مترجمة خاصة في "تبيان مضار الخمر صحياً وخلقياً" ودعوتها لعقد "المؤتمر الدولي الإسلامي لمكافحة التسمم الكحولي".

أما قضايا الأخطاء الطبية فأطرفها ما ساقته صحيفة المصري في **15** أبريل **1953** من وفاة طالب إثر حقنة بلهارسيا خاطئة بمستشفى ميت غمر الأميري واعتداء الحكمباشي على الأهل قائلاً: "الحكومة أوجدتني لكي أحيي وأميت من أشاء" (طبعاً الفرق بين زماننا وهذا الزمان أن الممارس الصحي زمان كان يضرب والآن يُضرب).

ومن أشهر من ماتوا بالأخطاء الطبية الخديوي توفيق بحسب تحقيق لمجلة (كل شيء والعالم) في **5** نوفمبر **1928** ذلك أن عدم علم أطبائه بحالة كليتيه السيئة جعلتهم يصفون له علاجات من المفترض تجنبها في حالته ولمزيد من التفاصيل حول هذه الحادثة يرجع لكتابي (حواديت المحروسة).

من القضايا المهنية ولكن هذه المرة من عالم البنوك ففي الدنيا المصورة عام **1929** وتحت عنوان "طيش الشباب يعمر السجون" أقدم أحد موظفي فرع بنك بالمنصورة على تزوير شيكٍ بمائتين وخمسين جنيه على عميل من عملاء البنك، والذي اكتشف بالمصادفة حينما أرسل له البنك إخطاراً بما "سحبه من حسابه وما تبقى له" وتم ضبط الموظف في بورسعيد أثناء

محاولته السفر لأوروبا وكان تبريره للواقعة شديد الطرافة وهو حاجته للاستشفاء من مرض عصبي أحدث اعوجاجاً بفكه الأسفل!!

لا يفوتنا الحديث عن حوادث النصب فتنشر لنا مجلة الدنيا المصورة في **29** مايو **1929** تحقيقاً عن مدرسة وهمية هي "جامعة المرأة الجديدة" حيث أقدم ثلاثة أشخاص على جمع تبرعات باسم المدرسة واستغلوا أن صاحب المنزل الذي استأجروا منه الدور الأول للمدرسة يقيم ختمة كل عام فتقام الأذكار وتوزع الصدقات وأوهموا الناس أنها حفلة افتتاح جامعة المرأة الجديدة. الطريف في الأمر هو أن كشوف المتبرعين ضمت صفوة المجتمع مثل أحمد باشا خشبة وعبد الحميد بيك الشواربي، ومحمد لبيب البتانوني بيك ومن المتبرعات هدى هانم شعراوي. وهنا أنتهزها فرصة وقد جئنا على ذكر هدى شعراوي وكان لي مبحث كامل عنها في كتابي على هامش التاريخ والأدب أن أوضح أنّ افتراءً طال هذه السيدة من أن تبرعاتها كانت وهمية وهذه القضية مثال ومثال آخر من الأهرام **1934** وتخصيصها جائزة مالية سنوية باسم جائزة مختار تعطى للمثال المصري الذي يبدع أجمل قطعة فنية وأنها بادرت لشراء تمثال صغير من الفنان محمود مختار وهو حي بمائتي جنيه في وقت تساوي فيه "المئتان ألفاً".

وهذان المثالان إحقاقاً لحقها حتى وإن اختلفنا معها في أمور أخرى كما جاء بالمبحث.

ماذا لو أخذنا قسطاً من الراحة بعد كل هذا الكم من قضايا السرقة والقتل وغيرها؟ وأطلقنا عنان أذهاننا مع نزاع حسن أحمد عويس ومستر كول والسبب لحية؟!! وعلى رأي المثل "واحد شايل دقنه والثاني تعبان له" بهذا المثل استهلت مجلة (الدنيا المصورة) عام **1929** هذه القضية التي تصلح فيلماً سينمائياً بامتياز (على غرار شنب النجعاوي في فيلم **30** يوم في السجن) وخلاصة القضية أن (حسن أحمد عويس) العامل بشركة البواخر النيلية الأمريكية قرر أن يرسل لحيته اتباعاً للسّنة و"أعجبته لحيته فأحاطها بكل رعاية" لدرجة أنه يغسلها في اليوم " ثلاثاً وسبعين مرة" وهذا بحسب المجلة حرفياً. لم ترق اللحية للمستر كول مدير أعمال الشركة فطلب منه حلقها بالحسنى وبالوعيد فرفض ووصل اهتمام كول بالأمر لدرجة أن أوهم حسن أنه بمأمورية وجعل سكرتيره يصطحبه رغماً عنه لأحد المزينين (الحلاق) فغضب حسن وضرب السكرتير.. وصل الأمر إلى طريق مسدود بين حسن وكول بعدما هدده الأخير بالفصل من العمل فرفع حسن شكوى لمدير القليوبية والنيابة، ففصله كول فرفع قضية أمام المحكمة المختلطة طلباً للتعويض، فحكمت له المحكمة في **6** مايو **1929** بتعويض قدره **257** جنيه، للضرر الذي حدث له من طرده من العمل. المثير ما اختتمت به المجلة القضية من أن حسن أقام حفل تكريم للحيته وقد "قاسى مر الصعاب ودافع عنها دفاع الأبطال".

ومن تعويض اللحية ننطلق في أثر تعويض التذكرة وقضية طريفة من سوهاج نقلها الأستاذ مرقس حنا باشا على صفحات الدنيا المصورة أيضاً في **26** يونيو **1929** والقضية تعود إلى عام **1905**، حينما كان دياب بيك أحد أعيان سوهاج في استقبال بعض أصدقائه في المحطة فطلب الموظف منه تذكرة رصيف بمبلغ خمس مليمات، فرفض وصمم على الدخول بدون تذكرة، وبعد مشادة منع من دخول المحطة فطلب من الأستاذ مرقس المحامي رفع قضية على الحكومة والمطالبة بتعويض خمسين جنيهاً، وكانت قضية هامة لأن تذكرة المقابلة لا تستند لقانون إنما لعرف لذلك فقد حضر الجلسة "عبد الله بيك سميكة" رئيس قلم قضايا السكة الحديدية.. والطريف أن الحكم صدر لصالح دياب بيك، واضطرت الحكومة لإصدار قانون بتذكرة المقابلة!!

هل يمكن أن نختتم المبحث دون المرور على قضايا غرق البواخر بمصر ونأتي على عدد (اللطائف المصورة) العدد **382** بتاريخ **5** يونيو **1922** وتصدرت عناوينه خبر "الباخرة مصر تغرق في **20** دقيقة-فاجعة مؤلمة" فبينما الباخرة تعبر "خارجة من بحر المانش في طريقها من إنجلترا إلى الشرق عن طريق جبل طارق" اصطدمت بها باخرة "فرنسوية" صغيرة اسمها "سين" وقد غشي الجو ضباب كثيف، وأسفر الحادث عن غرق مئة راكب وبحار ومليون ونصف مليون جنيه ذهباً وفضة، وبالطبع هذه ثروة هائلة جعلت

جهود انتشال الحطام يمتد لعشر سنوات دون كلل ومنها أيضاً غرق الباخرة "عمارة" التابعة لمصلحة البوستة السودانية في أعالي النيل الأبيض وما تجلى من مروءة أحد الصنادل الضابط الدكتور إبراهيم أفندي أنيم والذي أسهم في الإنقاذ ومعالجة الناجين وذلك بحسب (اللطائف المصورة) في **25** يونيو **1917**.

إنه حال مصر بين الأمس واليوم فارجع البصر هل ترى من تباين؟!

****

أوهام الزخم الأدبي الفريد

مقدمة

بداية... الغرض من هذا المبحث ليس فضح أحد أو كشف ستره والجميع بين يدي الله، لكن الغرض هو الخروج من عباءة الزمن الجميل واختزال التجارب الفكرية المصرية في عدة أقلام معدودة وتكوين مدارس فكرية تحت أسمائهم تمارس الوصاية على الإبداع والتفكير المعاصر. وقد آثرت أن يكون التناول لبعض الشخصيات الأدبية بمبحث خاص وبمفازاة عن موضوعات كانوا أبطالها في كتب لي سابقة.

أ. وسائل الشهرة قديماً:

1-الصعود عبر مهاجمة الكبار:

كان من وسائل نيل الشهرة وعلو المكانة لصغار الكتاب أن ينطلقوا في مهاجمة الكتاب الكبار المشهورين في أزمنتهم صدقاً كان أو افتراءً، حتى تتناقل المجالس أسماءَهم ومن أشهر هذه الحوادث:

مثال: مهاجمة طه حسين وكان لازال صغيراً لمصطفى لطفي المنفلوطي وللسيد رشيد رضا بإيعاز من الشيخ عبد العزيز جاويش والذي سلط قلم الفتى الأزهري على خصوم الحزب الوطني ويرجع طه حسين أسباب ذلك الإذعان لرغبات الشيخ لفضله عليه في السفر لفرنسا ولإشراكه في تحرير مجلة (الهداية) التي كان يصدرها الشيخ.

وذهب محمد شوقي أمين إلى أن العميد لم يكتب هذا النقد إنما "الأستاذ صادق عنبر هو الذي يعده لينشر باسم العميد"

....

المصادر:

1-كتاب الأيام الجزء الثالث للدكتور طه حسين.

2- كتاب (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) للدكتور محمد الدسوقي.

لقد ذكرتني هذه الطريقة في الخصومة بخلاف بين اثنين نقابيين وكل واحد منهما يسلط تابعي الآخر من وراء ستار في سجال عقيم وتنابذ مؤسف!

....

2-الإيهام بالشهادات العليا وعلو المنزلة الاكاديمية:

المثال: إسماعيل أدهم

كنت قد اتخذت عهداً في هذا المبحث بعدم إطلاق فرضيات أو استنتاجات أو تعمق في التفاصيل لحساسية المبحث أولاً ولعدم رغبتي في النيل من ذمم الآخرين وطرق سيرهم وهم موتى دون سند أو دليل قاطع لكن مع إسماعيل أدهم وجدت نفسي أتحلل من عهدي، فالشخصية مثيرة بكل ما تعنيه الكلمة.. كانت بداية اقترابي منه مع مبحث قدمته في كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) عن كتابه (لماذا أنا ملحد؟) وكنت فيه مباشراً دون التطرق لأي اتهامات جانبية لمؤهلات الرجل وثقافته مؤثراً تأخير هذا

الأمر لحينه على الرغم من أن الشكوك بدأت تساورني كثيراً حول حقيقة مؤهلاته التي أسهب في طرحها حينما وصلت لنهاية كتابه والطرح العلمي السطحي الساذج لإنكار وجود الله. وصفي له بالسطحي الساذج ليس لكوني متدين وغيور على ديني، وهذا مما لا شك فيه لكن لأن طرح الرجل بالفعل لا يمكن أن يصدر عن عالم متمرس وعميق في علم الفيزياء.

ما شعرت به أيضاً وتركته لحينه، هو العلاقة المريبة بين إسماعيل أدهم وأحمد زكي أبو شادي فما أكثر الرسائل الإسلامية التي تتناول الألوهية، فلمَ رسالة أبي شادي بالذات عن (عقيدة الألوهية) التي تستثير حمية إسماعيل أدهم ليعلن بعدها أنه ملحد؟! وأبو شادي لم يكن بهذه الشهرة وقتها!! ولماذا نشر إسماعيل رده على مجلة (الإمام) تحت عنوان (لماذا أنا ملحد؟) ومجلة الإمام من المجلات التي كان يخرجها أبو شادي نفسه؟! ليسارع أبو شادي برسالة مقابلة تحت عنوان (لماذا أنا مؤمن؟) هل كل هذه محض مصادفات؟! أسئلة لم أجد لها إجابة إلا حينما عدت إلى أرشيف مجلة الرسالة الشهيرة أتفحصه بتمعن.. فإذا بي أعثر على ضالتي ففي حديث للأستاذ (سلامة موسى) تحدث عما أسماه "مركب الدعاية العملية" الذي "دعا الشاعر الدكتور زكي أبو شادي" و"الناقد الأستاذ إسماعيل أدهم" إلى تأليف "كتب بالإنجليزية وتوقيعها بأسماء مستعارة" فزكي أبو شادي يوقع بلقبه العلمي (الدكتور) وإسماعيل يوقع (ليونارد هاركر) وقد التبس الأمر على الناس فظنوا أن الدكتور ليونارد هاركر شخص واحد وهما في الواقع

اثنان أحدهما شاعر والآخر ناقد!! وأضاف الأستاذ سلامة موسى مستنكراً:
"ولما عرفت هذه الحقيقة، وجدتني أنطق الشعر على الرغم من كراهيتي له،
وقلت أهجوهما: كم ناقد أبسط مِن شاعرٍ... وشاعر أمكر من ناقد.
فكيف بالله ترى خلة ... قد ضمت الوصفين في واحد"
مسألة التعاون بين أبي شادي وإسماعيل أدهم في إنتاج كتب دعائية تخدم كليهما في تحقيق الشهرة لم تكن فقط تحت مجهر الماضي الذي انطوى في زمرة الأحداث المتلاحقة، بل تناولتها الأبحاث الحديثة بتسليط الضوء عليها من جديد، ففي كتاب الدكتور كمال نشأت: (أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث) استبعد نسبة كتاب (أبو شادي الشاعر) لمؤلفه إسماعيل أدهم وأن الكتاب من وضع أبي شادي نفسه ووضع عليها اسم صاحبه!!! وذلك لأن الكتاب باللغة الإنجليزية وإسماعيل أدهم لم يكن يجيدها فيما كان يجيدها أبو شادي بشكل كبير، إضافة أن الكتاب كان "دعاية سافرة" لأبي شادي، فبحسب الكتاب أن باستطاعة أبي شادي اعتماداً على "مركز أسرته الاجتماعي والسياسي" أن يصل لمركز وزير وأن الوفد رشحه لعضوية مجلس النواب لكن "شواغله" الأدبية منعته ولا يخلو الكتاب من تغزل بالإنجليز بعد معاهدة **1936** والإعجاب بالجنس الإنجلوسكسوني والبيئة الإنجليزية وثقافتها الناضجة

أي أن الكتاب خلا من أي مقومات نقدية علمية سوى الدعاية لصاحبه بحثاً عن فرصة للشهرة ولو في معية الإنجليز!

لا تظن عزيزي القارئ أن حقيقة مؤهلات إسماعيل أدهم لم تشغل معاصريه، فالرجل بلا عمل أو وظيفة سوى إيراد منزل يمتلكه بالإسكندرية!! كما أنّ السجال بينه وبين الدكتور بشر فارس (لبناني الأصل وحاصل على الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة السوربون بباريس وعمل أستاذاً بالجامعة المصرية)، وذلك لنقد الأول لكتاب الأخير (مباحث عربية) واستغرق عدة مقالات متتابعة كشف بشكل جلي ضعف إلمام إسماعيل أدهم بالفرنسية التي كان يدعي أنه يترجم عنها إضافة لتلاعبه في المراجع التي ينقل منها و"ارتجاله" في اختلاق بعضها، فمثلاً استند أدهم في معرض ردوده على "الإصحاح الرابع عشر من سفر دانيال (العهد القديم) وكل السفر اثنا عشر إصحاحاً" كما استند إلى "الجزء الثالث من الفهرست لابن النديم في حين أن الكتاب يقع في جزء واحد" كما أن (مجموعة محاضرات دركايم) التي استند عليها "لا وجود لها" ولو أضفنا إلى ذلك الضعف الشديد لإسماعيل أدهم في اللغة العربية والواضح جداً في مقالاته من الوهلة الأولى وتعلله الدائم كلما أثيرت المسألة بأنها ليست لغته الأم ناهيك عن عدم إلمامه بالإنجليزية، فضلاً عن ضعفه في اللغة التركية والذي أشار إليه الشيخ (مصطفى صبري) أحد علماء الخلافة

العثمانية البارزين بما يعول عليه في الاستنتاج، وبكل اطمئنان أن ثقافة الرجل اللغوية والثقافية كانت محدودة للغاية.

وحينما انتحر غرقاً في البحر تاركاً في معطفه رسالة بأن انتحاره جاء لزهده وكراهته للحياة وأوصى بعدم دفنه في مقابر المسلمين وتشريح رأسه!! ولد ذلك لدى معاصريه موجةً من التعاطف الشديد حزناً عليه، لكن ذلك لم يمنع أحد الأدباء وهو الأديب إبراهيم حسنين البريدي (يقال أنه كان اسماً مستعاراً للعقاد لريبته الشديدة في أدهم وأن رسالته في الإلحاد على غرار رسالة الفيلسوف برتراند رسل "لماذا لست مسيحيًا" من إرسال استفسارات لإبراهيم أحمد أدهم على بريد مجلة الرسالة حول مؤهلات أخيه إسماعيل وحقيقة دراسته بروسيا في وقت كانت مصر تكافح المد الشيوعي وتفرض قيوداً على السفر لروسيا (عهد إسماعيل صدقي وقد تطرقنا له في هذا الكتاب)!! فيقول السائل: "إلى الأستاذ إبراهيم أدهم. كان لوفاة المرحوم شقيقكم الدكتور إسماعيل أدهم وقع شديد في نفوسنا لما له من اليد الطولى على الأدب العربي. وإني أرجو من الأخ أن يسمح لي أن أسأله عدة أسئلة إظهاراً لما غمض علينا من حياة الفقيد:

أولاً: هل صحيح أن الدكتور إسماعيل أدهم ذهب إلى روسيا ونال درجة الدكتوراه؟ وإذا كان قد مكث في روسيا فكيف أذنت له الحكومة المصرية بدخول الأراضي المصرية؟ وما هي المدة التي مكثها في الأراضي الروسية؟

ثانياً: هل صحيح أن الدكتور أدهم كان ملماً باللغة الألمانية؛ ولقد أخبرني من أثق به أنه أثناء التحقيق معه بصدد كتابه (لماذا أنا ملحد) تبين أن لم يكن يعرف الألمانية، بل ولا الروسية أيضاً، وما هي المدة التي قضاها الفقيد في تركيا؟

ثالثاً: هل ألف الفقيد كتاب (لماذا أنا ملحد) أم ترجمه وعن أي لغة ترجمه؟

هذا ونرجو من الأستاذ الفاضل أن يظهر لنا الحقيقة على صفحات الرسالة الغراء".

"إبراهيم حسنين البريدي"

ردود إبراهيم أدهم على هذا النوع من الرسائل كان إما التجاهل أو ترك الآخرين للرد كأبي شادي أو باسمٍ مستعارٍ (مؤرخ) أو تأتي ردوده مقتضبة ولا تقترب من مؤهلات إسماعيل، مما زاد من الشكوك المثارة فقد جاء في تصحيحه لمقالة الأستاذ الزيات (نهاية أديب) أن "والده لم يتزوج روسية ولا من مصرية" دون تحديدٍ لجنسية!! فيما أكد أنّ أخاه هو حفيد "أدهم باشا مدير المدارس المصرية في عهد محمد علي باشا والخديوي إسماعيل" وهو ما لم يشر إليه إسماعيل في سيرته الذاتية بينما كان شديد الاعتداد بنسب والدته!!

ولأننا في الزمن المنعوت بالجميل حيث شيوع استخدام الأسماء المستعارة والمرونة في انتحال الدرجات العلمية وسهولة استخدام الألقاب العلمية

دون رقيب وفوضى النشر بالصحف دون تحقق من حقيقة كتابها، فقد ظل سر مؤهلات إسماعيل غامضاً حتى عام **1972** حيث ثبت بالبحث أن إسماعيل أدهم لم يحصل على "أية شهادة دكتوراه ولم ينشر أي كتاب بالروسية أو الفرنسية أو الألمانية" وأن "لا علاقة صداقة بينه وبين المستشرق الروسي بارثولد" الذي توفي قبل عام من حضور إسماعيل المزعوم لروسيا وأن المستشرق الروسي (كازيميرسكي) الذي زعم أنه مدحه كان شخصاً وهمياً من صنع إسماعيل ذاته، وأن غالب الظن أن إسماعيل لم يغادر مصر إلى أي مكان.. بالطبع عرفنا الآن السبب في انتحار إسماعيل أدهم وهو بالتأكيد الخشية من افتضاح أمره بعد الصيت والمكانة التي حققها والمهددة بالكشف في أي وقت.

....

المصادر:

1-مجلة الرسالة أعداد **314** و**320** و**330**و**375** و**376**و**370**و**371**و**388**

2- كتاب (عرب بلا رب) لبراين ويتاكر

G.H.A. Juynboll , Ismail Ahmad Adham (1911-1940),

the Atheist 3-, Journal of Arabic Literature . 3 : 1972 ,

pp 54-71

....

3-أن يكتب الأديب عن نفسه باسم مستعار أو باسم آخر:
مثال: أحمد زكي أبو شادي راجع المثال السابق.

....

4-الإيهام بمعرفة مفكر أو كاتب كبير والسير في ركابه والمبالغة في الحكي عنه:
مثال لذلك: كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) للكاتب الكبير أنيس منصور وهو أحد أهم الكتابات عن العقاد بحكم ملازمة مؤلفه له.. ولكن هل قابل أنيس منصور العقاد حقاً؟
تثير الكتابات المعاصرة الكثير من علامات الاستفهام حول هذه العلاقة فلا توجد أية صورٍ تجمع العقاد بأنيس منصور، كما نقل البعض شهادات من بعض الملازمين لمجلس العقاد أن أنيس منصور لم يكن من بينهم.. ونظراً لأنها مسألة جدلية تحتكم للمنطق في أجزاء كثيرة منها، فأتركها لفطنة القارئ وحكمه من خلال مصدرين هما: كتاب (كهنة المعبد من أسرار الصحافة والسياسة) للدكتور محمد الباز وكتاب (غرام الكبار في صالون مي زيادة) لأنيس الدغيدي.

....

5-الانتماء لحزب سياسي:
إن الانتماء للأحزاب والدخول في معترك السياسية كان الوسيلة الأكثر ضمانة لأي أديب ليحظى بالشعبية والمتابعين.. كالعقاد انتمى للوفد ودافع

عن سعد زغلول باشا زعيمه وطه حسين انتمى لحزب الأحرار الدستوريين ثم حزب الاتحاد الموالي للملك.

ومكسب الأحزاب لم يكن أبداً معنوياً وحسب بل كان مادياً أيضاً يدر على صاحبه عائداً كبيراً من الكتابة بصحف الأحزاب، فمن أسباب انتقال طه حسين من الأحرار الدستوريين إلى الاتحاد هو المقابل المادي الأعلى للكتابة بصحيفة الحزب وحينما سئل طه حسين عن العقاد: ألم يكن من الأجدى للفكر لو أنّ الأستاذ العقاد لم يشغل نفسه بالسياسة والحزبية واهتم بالدراسات الأدبية والفكرية؟ فأجاب طه حسين: "لم يكن في استطاعته أن يفعل ذلك وإلا مات جوعاً، فلم يكن الأدب وحده يكفي أن يدر عليه رزقاً يكفيه ولذلك اضطر إلى خوض ميدان السياسة والحزبية".

العلاقة بين طه حسين والعقاد كانت على صفيح ساخن، لكن لم تصل أبداً إلى القطيعة، وكان طه حسين ذكياً في تعامله مع العقاد فحينما انتقل من معسكر الأحرار الدستوريين إلى معسكر الوفد وكان العقاد "رابضاً في هذا المعسكر في يقظة الحارس العتيد العنيد" بحسب رواية عباس خضر فأراد طه حسين ترويضه بمبايعته بإمارة الشعر بعد شوقي!

ويرصد عباس خضر عبر رحلته الأدبية في هذه العهود حجم الفجوة بين المنتمين من الأدباء للأحزاب وبين من التفت لصنعته الأدبية واكتفى بها فيقول: "السياسة ترفع المهرجين إلى كراسي الحكم وتعلي صيتهم أما

العاملون بعيداً عنها فيما يجدي أكثر منها أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام"

ويضرب أمثالاً عما آل إليه حال أصحاب الصنعة المنصرفين عن السياسة فمثلاً خليل صادق صاحب مجلة مسامرات الشعب والفضل في نقل الآداب الأجنبية إلى اللغة العربية التقاه فوجده قد أصبح فاقد البصر "إلا خشاشاً" وقد طواه النسيان بعد حين لأنه "لم ينتمِ إلى حزب ولم يشتغل بالسياسة" وحافظ إبراهيم الشاعر الكبير كان في مجلس من أمثاله من "الأدباء المفلسين".

فأراد أحدهم معرفة الوقت فرد آخر: "هو فيه أديب معاه ساعة" فأخرج حافظ ساعته التي كان يحملها ليعرف منها الليل والنهار غير مكترث إن كانت تقدم أو تأخر ودفعها من تحت المنضدة إلى جاره ليأخذها فرفض الجار قائلاً: "لا لا يا عم أتريد أن يقولوا إني لست أديباً".

رواية خضر وإن جاءت في معرض الحديث عن السياسة والأدب إلا أنها تكشف أيضاً عمّا اشتهر عن حافظ إبراهيم من الكسل عن القراءة واللا مبالاة في ترتيب حياته والتبذير المفرط..

مثال آخر: عدم انتماء أحمد أمين لأي حزب سياسي ورفضه عرض صديقه محمود فهمي النقراشي لرئاسة تحرير صحيفة الحزب (الأساس) أفقده الكثير من المزايا، فبحسب مقدمة الدكتور جلال أمين لكتاب أخيه حسين عن والدهما، وقد جاءت مقدمته تحت عنوان "سلطان العقل" أن ذلك أدى إلى

انحصار فرصة الإنعام على والده بالباشوية من الملك ذلك أنه لم يقل شيئاً للثناء عليه، وأفقده أيضاً فرصة الترشح من الحزب السعدي لمنصب وزير المعارف لأن ترشحه يؤدي إلى احتجاج شباب الحزب "إذ أين ولاء أحمد أمين للحزب؟"

طبعاً الحال تغير الآن ونادراً ما تجد حزباً يمتلك صحيفة لضعف التمويل.. أنا كنت بحزب كنا نجمع من بعضنا البعض لشراء الشاي والسكر! وأعتقد أن الأحزاب لتحيا بين الناس عليها أن تصنع يوتوبرز لها فهذه أصبحت موضة العصر، وأن تصنع صحافة إلكترونية وهي غير مكلفة تصل للقراء بسهولة وتبني عقولهم وتغذي أفهامهم على حب الوطن من جديد والقيم والأخلاق والتاريخ والحضارة وغيرها من الشؤون بأسلوب جذاب وأنيق وبلغة هذه العصر وآلياته.

....

المصادر:

1- كتاب (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) للدكتور محمد الدسوقي

2- كتاب (خطى مشيناها) لعباس خضر

3- كتاب (في بيت أحمد أمين) لحسين أحمد أمين

....

6-خالف تعرف:

أحياناً يلجأ بعض الأدباء إلى تسليط الضوء على أنفسهم طوال الوقت عبر إطلاق مسميات من نوع "عدو المرأة "أو ادعاء البخل وترك الصحافة للجدل حول الأمر، وهي أمور شخصية إن صحت لن تفيد القارئ في شيء، ومن هذا النمط من الأدباء الأستاذ توفيق الحكيم والذي دخل في مبارزة حامية مع الجنس اللطيف عام **1939**، حينما تحدث تحت عنوان "لا وجود للزوجة الصالحة في مصر" لماذا؟! لأن المرأة الصالحة في تعريفه هي من تجيد طهي صينية البطاطس في الفرن وأن النساء في مصر ثلاثة أنواع: إما كالدمى لا يعرفن من الحياة سوى تقليد "ماجنات" هوليود أو حائزات للدبلومات والبكالوريات يصلحن للتدريس لكن لا يمكن أن يكن زوجات وأمهات صالحات!! والنوع الثالث الجاهل المجيد للطهي، لترد عليه الآنسة إيفا حبيب المصري رئيس تحرير المصرية بأن لا تنافر بين العلم والطهي!! في سجال لا فائدة منه أدبياً وفكرياً سوى صناعة الضجة والشو الصحفي أو إشباع محبي البطاطس مثلي على الرغم من إصابتي بالسكر!!

....

ب. السرقات الأدبية:

المثال الأول: أمير الشعراء أحمد شوقي

يقول الدكتور زكي مبارك أن الأستاذ طاهر الطناحي قضى ثلاث سنين في جمع سرقات شوقي وأنه يضيف على هذه السرقات سرقته من شعر صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الأسمر، لكنه في الوقت ذاته يشيد بأبيات شوقي المسروقة، وأنها جاءت أجمل من أبيات الأسمر المسروق عنها. وفي سياق متصل يتحدث زكي مبارك عن أن شوقي "انتهب من شعر الشيخ عثمان زناتي".

وحدث أن نقد عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين قصيدة شوقي في مدح كمال أتاتورك "وأنه أخذها من البحتري".

كما أن عباس العقاد قد شن هجوماً ضارياً على شوقي عام **1921** حيث اتهم شوقي بسرقة من المعري في قصيدته في رثاء فريد والسرقة من المتنبي في قصيدته في رثاء مصطفى كامل، ومن أبي العتاهية والمعري في رثاء الأميرة فاطمة.. كما طالب بضرورة معاقبة شوقي "لتهالكه على الشهرة" وشراء الأقلام لمدحه في الصحف "الخرق المنتنة (بحسب وصفه)" فيقول: "ولئن لم يعرف شوقي مغبتها أدبًا زاجرًا وجزاء وافرًا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر، ليكونن بلدنا هذا بلدًا يجوز فيه كل شيء ولا يؤنف فيه من شيء، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريًا إلا اتقاء طوارئ الجو وعوارض الحر والبرد. أما الحياء فلا ولا كرامة." ولا يخفى أن الكثير مما ورد بالكتاب كان

فيه كثير من التحامل بدافع الغيرة الشديدة التي تملكت العقاد من شهرة شوقي ومبايعته بأمير الشعراء.

....

المصادر:

1- كتاب (الأسمار والأحاديث) لزكي مبارك.

2-كتاب (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) للدكتور محمد الدسوقي

3- كتاب (الديوان في الأدب والنقد) لعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني.

....

المثال الثاني: إبراهيم عبد القادر المازني

من أكثر السرقات الأدبية إثارة تلك التي تخص إبراهيم عبد القادر المازني ذلك أنه دأب على إرجاع أسبابها إلى السيكولوجيا وأنه من فرط إعجابه بالمعاني فإنه يحفظها، ثم ينظمها وينسى أنها لغيره.. لكن طبعاً لا ينسى أن ينسبها لنفسه!!

وأوجز نقلاً عن الشاعر عبد الرحمن شكري سرقات المازني في الآتي: قصيدة "الشاعر المحتضر" البائية وهي مأخوذة من قصيدة أودني للشاعر شيلي الإنجليزي وقصيدة "قبر الشعر"، وهي منقولة عن هيني الشاعر الألماني، وقصيدة "فتى في سباق الموت" وهي للشاعر هود الإنجليزي، وقصيدة "الوردة الرسول" وهي للشاعر ولز الإنجليزي، وقصيدة "الراعي المعود" وهي

للشاعر لويل الأمريكي، وقصيدة "الذكرى" لتينسون الشاعر الإنجليزي، ومقالة تناسخ الأرواح في مجلة البيان وهي من "أولها إلى آخرها من مجلة السبكتانور لادسون الكاتب الإنجليزي" و"من مقالاته في ابن الرومي التي نشرت في البيان قطع طويلة عن العظماء وهي مأخوذة من كتاب شكسبير والعظماء تأليف فيكتور هيجو ومن مقالات كارليل الأدبية" ومن كتاب الذخيرة في الشعر الإنجليزي .

جاء رد المازني انفعالياً فتحت عنوان "صنم الألاعيب" كتب: "شكري صنم ولا كالأصنام، ألقت به يد القدر العابثة في ركن خرب على ساحل اليم؛ صنم تتمثل فيه سخرية الله المُرة وتهكم «أرستفانيز السماء» مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة الناس وسلوانهم" وبعيداً عن المناقشة الموضوعية وتفنيد السرقات المتهم بها راح يشخص شكري كما لو كان طبيباً نفسياً من خلال تحليل أبياته و" دلائل الاضطراب في جهازه العصبي" و "هذيان الحواس"

وأنه "قديم العهد بالشياطين والعفاريت" ليخلص من ذلك إلى أن "ذهنه (يقصد شكري) متجه أبدًا إلى خاطر الجنون".

من أغرب سرقات المازني أنه ضم لقصته (إبراهيم الكاتب) أجزاء من رواية روسية كان قد أهداها له العقاد وقام بترجمتها في الماضي تحت اسم (ابن الطبيعة) بدلاً من عنوانها الأصلي (سنين على اسم بطلها).

كشف السرقة ناقد بمجلة (الحديث) التي تصدر بحلب. طبعاً كان من الصعب على المازني أن يتملص من السرقة هذه المرة فالعمل الأول من تأليفه والآخر من ترجمته فعاد للسيكولوجيا مرة أخرى وأن السرقة جاءت نتيجة "معابثة الذاكرة للإنسان" وأن الجزء المقتبس "كان قد علق بذاكرته لعمق الأثر الذي تركته هذه الرواية (يقصد ابن الطبيعة المترجمة) في نفسه". نسيت أن أقول لكم أن المازني كان يتطلع لدراسة الطب لكنه دخل حقوق ولم يكمل بها، ودخل مدرسة المعلمين!!

....

المصادر:

1-كتاب (المعارك الأدبية) لأحمد أنور سيد أحمد الجندي

2-كتاب (الديوان في الأدب والنقد) لعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني

3-مجلة الرسالة العدد **213** السرقات الأدبية للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني **1937**

....

المثال الثالث الأستاذ أحمد أمين:

صوب الدكتور زكي مبارك هجوماً عنيفاً على الأستاذ أحمد أمين متهماً إياه بالسرقة ومستعرضاً عدة نماذج من هذه السرقات وارداداً إياها إلى أصولها

فمثلاً قول أحمد أمين أن الخطأ الذي ارتكبته مصر بانقسام "التعليم إلى شعبتين: شعبة دينية وشعبة مدنية" مسروق من محاضرة للشيخ "محمد الخضرى بيك" وأن قول أمين "أن العرب في جاهليتهم لم تكن لهم وثنية تبدع الأساطير على نحو ما كان عند اليونان" و "أن الإعجاب المطلق بالأدب العربي يضر أكثر مما ينفع وأن من واجبنا أن نوازن بين أدبنا وبين الآداب الأجنبية" كلها مسروقة من محاضرة للدكتور أحمد ضيف بالجامعة المصرية ولم يراعِ أمين الأمانة العلمية في ذكر المصدر معتبراً أنها من مبتكراته" وأن أحمد أمين في الجزء الثالث من (ضحى الإسلام) سرق من الأستاذ إبراهيم مصطفى مسألة متصلة بتاريخ النحو ومنه شخصياً مسألة متصلة بتاريخ التشريع الإسلامي.

ويقول عباس خضر: إنه أحضر مقالاً للنشر بمجلة الرسالة عن "أدعياء التجديد" فوجد أحمد أمين وكان الرجل الثاني فيها بعد أحمد حسن الزيات وترك له المقال وانصرف ثم فوجئ بأن أحمد أمين ينشر مقالاً بنفس فكرة مقاله تحت اسم "التجديد والمجددون"، فذهب إليه للسؤال عن مقاله فقال له أحمد أمين في "شبه غضب: ماذا تعني؟! وأنكرني قائلاً: إنه لم يأخذ مني أي شيء ولا يذكر أنه رآني قبل ذلك".

وإنصافاً للرجل فإني أرى أغلب هذه القضايا تدخل في دائرة اقتباسات الأفكار دون ذكر المصدر ولا ترتقي لمستوى السرقات الأدبية الكاملة.

فمثلاً في كتاب حسين أحمد أمين عن والده ما يمكن أن نستشف منه هذه الحقيقة فكما جاء بالكتاب أن حديث والدته لزوجها (أحمد أمين) عن سيدة عقيم جلست معها في الترام هو الذي أوحى إليه بمقال "ولود وعقيم" في كتابه "فيض الخاطر"

المصادر:

1- مجلة الرسالة الأعداد **330**و **331** جناية أحمد أمين على الأدب العربي لزكي مبارك **1939.**

2- كتاب (في بيت أحمد أمين) لحسين أحمد أمين

3- كتاب (ذكرياتي الأدبية) لعباس خضر

....

ت. الكتابة للغير:

طبعاً هذا ليس عيباً حينما يكون فريق عمل خلف الأديب أو الكاتب الكبير ويكتب أسماءهم بصحبته فيما يتصدر اسمه الكتاب لكن حينما يكون الفريق المعاون في الظل ويتجاهل الإشارة لأسمائهم في كتابه ففي ذلك غبن لحقوق الآخرين.

ومن أمثلة ما جاء بالزمن الماضي:

المثال الأول: يقول مصطفى أمين أن الدكتور سعيد عبده كتب مسرحيات أحمد شوقي وأن شوقي كان يكتب القصائد متفرقة ويعطيها للدكتور سعيد والذي يحولها إلى الحوار ويصبغ عليها الحبكة المسرحية وأن خلافاً وقع بينهما بسبب قلة المقابل وهو عشرة جنيهات فقط دفعت للدكتور سعيد!!

في حوار صحفي اعترف الدكتور سعيد عبده وهو بالمناسبة طبيب ومهتم بالطب الوقائي والشعر والمسرح هوايات له أنه من قام بالصياغة والإعداد المسرحي بصورته النهائية لمسرحيات شوقي، وأن مسرحية (مصرع كليوبترا) استغرقت منه عاماً ومسرحية (مجنون ليلى) ثلاثة أشهر، وأن دوره لم يقتصر فقط على ذلك بل وجمع المادة التاريخية وتدريب الممثلين أثناء تمثيل المسرحيتين، وكذلك في كتابة النظرات التحليلية وكان ينتظر أن يوضع اسمه كنوع من التقدير لكن "العملاق" لم يفعل...

....

المصادر:

1-كتاب (من عشرة لعشرين) لمصطفى أمين

2- كتاب هؤلاء حاورهم مفيد فوزي الجزء الثاني

....

المثال الثاني: أن محمد شوقي أمين العالم قدم المعاونة لكل من الأديبين محمود تيمور وكامل كيلاني وأن عباس خضر عاون شوقي أمين في جمع المادة التاريخية لمسرحية تيمور (ابن جلا) عن الحجاج بن يوسف بطل المسرحية نظير مقابل مالي لاحتياج كليهما للمال في ذلك الوقت.

الطريف أن عباس يحكي أنه كتب عن المسرحية في مجلة الرسالة مشيداً بمؤلفها وممثليها ومخرجها زكي طليمات آسفاً لغياب الجهد الأبرز من وراء الكواليس لشوقي أمين.

وأن مساعدة شوقي أمين لكامل كيلاني كانت في كتبه للأطفال نظراً لكمها الكبير.

ويختتم ذلك بقوله "مسكين شوقي أمين عمل كثيراً لغيره ولم يعمل لنفسه إلا القليل"

....

المصدر: كتاب (خطى مشيناها) لعباس خضر

....

المثال الثالث: يحكي عميد الأدب العربي طه حسين أن الدكتور محمد حسين هيكل لم يكن يؤلف كتبه وإنما "كان يكتبها له آناس آخرون" وأن هيكل وقع في خطأ في حياة محمد بذكره الأسطول الحبشي ولم يكن للحبشة أسطول بل لجأ النجاشي لقيصر لإرسال أسطوله.

المصدر: كتاب: (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) للدكتور محمد الدسوقي.

....

ث. الشراكات مقابل النشر:

من غير المقبول أن يكون استغلال بعض الكتاب الناشئين وإِغرائهم بشراكات مع كتاب كبار مقابل نشر أعمالهم ومنحهم الشهرة والاهتمام النقدي وللأسف الشديد الأمثلة التي تقع تحت هذا العنوان من الزمن القديم كانت تخص الأستاذ أحمد أمين والحقيقة أنني خصصت مبحثاً كاملاً في كتابي (مرآة التاريخ) عنه وكتابه الأخلاق والتجربة المدرسية في تدريس الأخلاق، ولقد آثرت أن أفصل بين إنجازات الرجل والاتهامات التي طالته وأن يكون لها مبحث خاص.

المثال الأول: تناول الدكتور عبد الرحمن بدوي اتهامات بحق الأستاذ أحمد أمين وأنه لكونه لا يتقن اللغات ولا يعرف سوى "قشور تافهة من أوليات اللغة الإنجليزية"، كان يسعى لانتحال أعمال الآخرين المتطلعين للشهرة" لتعويض هذا النقص لذلك كان يريد مشاركته في كتابه (التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية) والذي يضم دراسات بالألمانية والإيطالية وفي "موضوع بعيد عنه" وكان قد قدم بدوي أصول الكتاب للجنة التأليف والترجمة والنشر التي يرأسها أحمد أمين منذ إنشائها عام **1914** وحتى وفاته عام **1954.**

يقول بدوي: إنه صده منذ اللحظة الأولى ونشر الكتاب لدى مكتبة أخرى معتبراً الأمر "صفاقة ما بعدها صفاقة" وإنّ الأستاذ أحمد أمين كان "ضيق

الأفق تأكل قلبه الغيرة من كل متفوق"، وإنه وقف حجر عثرة أمام إتمام مناقشته للماجستير.

المصدر: كتاب (سيرة حياتي) للدكتور عبد الرحمن بدوي الجزء الأول

المثال الثاني: تحدث الأستاذ أنيس منصور أن كتاب (قصة الفلسفة اليونانية) الذي تشارك فيه الأستاذ أحمد أمين مع الدكتور زكي نجيب محمود لم يكتب فيه أحمد أمين "حرفاً واحداً" ذلك أن الوسيلة الوحيدة للنشر "أن يوضع اسم أحمد أمين لأنه صاحب المطبعة والناشر وصاحب مجلة الثقافة"

المصدر: كتاب (في صالون العقاد كانت لنا أيام) للأستاذ أنيس منصور

....

المثال الثالث: تحدث الدكتور زكي مبارك عن كتاب (الإمتاع والمؤانسة) للتوحيدي والذي حققه أحمد أمين بالمشاركة مع أحمد الزين (محقق مصري كان كفيف البصر) معدداً **27** ملاحظة حول أخطاء الكتاب ومستبعداً أن يكون أحمد أمين قد اشترك في تصحيح الكتاب بطريقة جدية وإلا لما أخطأ في بديهيات وداعياً الناس لاقتناء الكتاب الذي لا يزيد ثمنه عن أربع علب من السجاير!!

كما ذهب الدكتور بشر فارس إلى نفس الاستنتاج وهو أن الأستاذ أحمد أمين "لم يصرف إليه (يقصد الكتاب) عند التحرير موفور هَمّه"

....

المصدر: مجلة الرسالة العدد **336**: كتاب الإمتاع والمؤانسة زكي مبارك **1939.**

ومجلة الرسالة العدد **337**: رسالة النقد كتاب الإمتاع والمؤانسة للدكتور بشر فارس **1939.**

....

في المقابل نجد من فهم معنى المشاركة مع فريق العمل ولا يجد غضاضة في توجيه الشكر إليهم على نحو يليق بهم مثل عبد العزيز باشا فهمي في كتابه: (الحروف اللاتينية لكتابة العربية)، فالرجل يوجه شكره لشوقي أمين (صديقنا طوال هذا المبحث)، والذي تولى التصحيح للكتاب رافضاً أي لفظٍ لم تجمع كل المعاجم عليه وعلى استخدامه ولمحمود عمر الذي تولى التبييض ونبهه لبعض القصور في بعض العبارات بما لا يؤدي للمعنى المنشود وأصلحها... جميل فريق العمل والأجمل الاعتراف بالفضل والجميل.

....

ج. المؤلفون وحركة النشر:

السؤالان الأزليان:

وكأننا على موعد مع فكرة البيضة قبل الفرخة ولا الفرخة قبل البيضة؟!

والرنا قبل الدنا أم الدنا قبل الرنا؟!

الأول: هل الكتب في الماضي كانت على نفقة الكاتب أم على نفقة دور النشر؟

لا أملك إجابة قطعية على هذا السؤال لكن من خلال هوايتي مع الكتب القديمة غالباً ما يكون على غلاف الكتاب جملة "أن كل نسخة غير موقعة بختم صاحبها تكون مسروقة"، وهو ما يعني أن هذه الأزمنة ربما عرفت نظام النشر الحر وهو أن الكاتب له كافة الحقوق على كتابه ويدفع للمطبعة نقوداً نظير عدد من النسخ يبيعها لحسابه الخاص، ويتقاضى ثمنها من القراء عبر مكتبات التوزيع بالمحافظات ومن أمثلة الكتب التي تحمل هذا التنويه كتاب (السراج الوهاج في الإسراء والمعراج) تأليف بدر محمد عسل المدرس بالمدارس الأميرية **1937** وكتاب "رحلة إسماعيل في جميع المحافظات وعواصم المديريات لواضعه إسماعيل محمد مصطفى" وثمنه "سبعة قروش صاغ" وأتيت على ذكره في كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) وهناك كتب تحمل أسماء مؤلفين لكنها مطبوعة على نفقة أشخاص آخرين غير مالكي المطابع وبالتأكيد هؤلاء الرعاة الذي يتكفلون بنفقات طباعة كتاب المؤلف سيكون نظير نصيب مفروض بالاتفاق مع المؤلف ومن أمثلة الحالة الثانية قصة طريفة ساقتها هدى شعراوي في

مذكراتها من أن "عبد السميع أفندي عرابي" طلب منها طبع مذكرات أبيه الزعيم أحمد عرابي على نفقتها الخاصة في مقابل حذف الجزء الخاص بخيانة والدها محمد سلطان باشا، ولكنها رفضت. بالطبع ستسأل عزيزي القارئ: لماذا لم ينشر عبد السميع أفندي المذكرات على نفقته؟! ذلك لأن أملاك عرابي والبالغة "**877** فدان ونصف" ظلت مصادرة بعد فشل ثورته وحتى عام **1953** حتى أن أهل عرابي لم يجدوا نفقات لتجهيز جنازته فانتظروا حتى دبروا المال في اليوم التالي وأعلنوا نبأ وفاته!! ولو كانت المطابع في هذا الوقت تنشر على نفقتها وأحمد عرابي طبعاً شخصية عامة لما لجأ لهدى شعراوي!

وقد عرفت هذه الأزمنة أن يكون موضوع الكتاب بناء على رغبة الناشر وطلبه أحياناً مثل إبراهيم يوسف صاحب مكتبة الأهرام بشارع محمد علي بالقاهرة والذي ألح على الأستاذ عبد الله حسين المحامي في وضع كتاب (المسألة الحبشية) عام **1935** لكثرة المترددين على مكتبته طلباً لكتب عن الحبشة ويقول في ذلك:

"بيد أن الأستاذ المؤلف قد اعتذر بضيق الوقت وبانحراف صحته، فناشدته باسم المصلحة الوطنية أن يلبي طلب الجمهور"

إذاً أين النشر المجاني الذي سمعنا عنه في الماضي؟!

النشر المجاني في الغالب كان حكومياً ولأهداف تربوية إن نال الكتاب استحسان القائمين على هيئات الدولة مثل نظارة المعارف أو على نفقة الأحزاب مثل كتاب (رسائل مصري لسياسي إنجليزي كبير في سنة **1905**) والذي تناولناه في مبحث خاص وطبع على نفقة حزب الإصلاح الدستوري عام **1908** وإلا كان النشر بمقابل مالي كبير فمثلاً كتاب "العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ" لمؤلفه محمد بيك عثمان وتعرضنا لقصته في كتاب (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر). كان المؤلف قد عرض الكتاب بواسطة مصطفى فاضل باشا على الوالي محمد سعيد باشا لتبني الكتاب لكن لم يرق له فلجأ المؤلف إلى "مطبعة الحجر لصاحبها الخواجة الفرنسي يوسف بير والكائنة بالدرب الجديد بالموسكي بمحروسة مصر المحمية" لكن خلاف نشأ بينهما فراح لمطبعة أخرى أكبر ودفع مبلغاً كبيراً في سبيل ذلك أوصله حد الإفلاس فيقول: "صرفت عليها ما جمعت ونشرتها ثم بعت الحمار وبعتها" وأنشد قائلاً:"راجي المحال عبيط وآخر الزمر طيط".

هذا ما وقع تحت يدي واستنتجت منه ما كان أما ما ينبغي أن يكون فهو الوعي المشترك وأن العلاقة بين المؤلف والناشر علاقة تكاملية وليست علاقة تبني كامل للمواهب تخسر على أثره الدور في سوق للنشر الورقي يغلب عليه الكساد..

السؤال الثاني: هل الكتب التجارية المسلية كالروايات والتنجيم وكل ما كان غير نافع بكل هذا الزخم في هذه الأزمنة؟

يقارن محمد عمر في كتابه (حاضر المصريين أو سر تأخرهم) بين المطابع المصرية (خاصة الإسلامية) والمطابع السورية في أن الأولى تميل لطبع كتب السخافة والأوهام كالقصص والحكايات الغرامية والفكاهية والنوادر والملاحم المنسوبة زوراً لمشاهير الإسلام، بينما الثانية تميل إلى "كتب الجد الحاثة للأمة على الظهور في عالم الحقيقة" ويطرح أمثلة على الكتب المفيدة من وجهة نظره والتي لا أوافقه عليها تماماً ككتاب سر تقدم الإنجليز السكسونيين والذي وضع كتابه على غراره وكتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة لقاسم أمين.

أما واستعرضنا السرقات والخلافات بين أدباء الزمن الجميل ففي النهاية أرجو من السادة الكتاب الذي يكتبون عن عصارة استفادتهم من مثاليات هؤلاء القوم من كتاب العصر الجميل وتعايشهم المبهر مع بعضهم البعض دون خلافات ألا يستقوا كلامهم من أنعية هؤلاء الكتاب لبعضهم البعض.. فهذه مناسبات تتطلب المجاملات والخطب الطوال في مآثر الفقيد وبدلاً من الاقتباس منها انظر إلى حياتهم الحقيقية عبر معاركهم الأدبية أحياناً وغير الأدبية في أكثر الأحيان ومصادرها متوافرة على الإنترنت وببطون كتب النقد.

محنة أبجد هوز في مصر

من الغريب والعجيب والمدهش أن تجد كل المعطيات المسخرة للتعليم في مصر على مستوى عالٍ من الكفاءة والقدرة والوفرة ومع ذلك فنتائج العملية التعليمية دائماً محبطة ولا تلبي الطموحات المنعقدة عليها.
فنظرة بسيطة على عشرات الكتب التعليمية القديمة على الأرصفة والتي كتبها عمالقة الكتابة والأدب حتماً ستبهرك عزيزي القارئ ولو كنت من عشاق اقتنائها مثلي فستتحول لديك إلى عادة فدائماً ما أجد نفسي مستمتعاً بشرائها من باعة الكتب القديمة حتى مع أصعب فترات حياتي (فقد والدتي الإجازة الماضية) ومنتشياً وأنا أذكر بعض عناوينها وأزين برحيقها مقالاتي وتتملكني الغبطة أحياناً من أني لم أعش في عهد الأسرة العلوية في مصر لأنهل منها فمثلاً كتاب (الدروس التاريخية للمدارس الثانوية مقرر السنة الأولى **1912**) تأليف "محمد عبد الرحيم خريج جامعتي نوتنجهام ومنشستر بإنجلترا ومدرس بالمدرسة السعيدية وعبد الرحمن فخري خريج جامعة منشستر بإنجلترا ومدرس بالمدرسة السعيدية"وكتاب (الأخلاق النظرية أو الأخلاق الفلسفية) تأليف الدكتور محمد غلاب "خريج جامعة ليون بفرنسا وأستاذ الأخلاق بكلية أصول الدين بالجامعة الأزهرية **1933** " وكتاب (أصول الفلسفتين العلمية

والأخلاقية لواضعه رينيه ورمس أستاذ في الفلسفة وليسانسيه في العلوم ودكتور في الحقوق ومن خريجي مدرسة المعلمين العليا بفرنسا) " تعريب البكباشي حافظ صدقي ياور جلالة الملك **1924**".

انظر يا سيدي القارئ إلى عظمة مؤهلات أصحاب هذا الكتب وغيرهم ومدى علو معارفهم وثقافتهم، وانظر أيضاً إلى مراعاة كل ما يحيط ببيئة الطالب وتدريبه على استغلالها فنجد كتاب (دروس في الأشغال اليدوية لتلاميذ المدارس الابتدائية) تأليف أستاذ عباس عزت مدرس مساعد بمدرسة المعلمين العليا **1925** والمجلة المدرسية (السمير الصغير) **1926** ودرس الأمانة رأس الأخلاق والتعفف عن أخذ ما ليس لنا.. وحتى كتب إعداد المعلم كان لها نصيب فمثلاً كتاب (هداية المدرس للنظام المدرسي وطرق التدريس) بطريقة موجزة تأليف على عمر بك مساعد مراقب التعليم الأول **1924**.

كذلك اجتهادات المعلمين كانت إلى حد ما بارزة وملهمة وإن جاءت كمبادرات فردية من أصحابها فيروي لنا (عباس خضر) في كتابه (خطى مشيناها) عن مدرس التاريخ أستاذ حمدي والمقرر هو تاريخ أوروبا وقبل بدء العام الدراسي سافر الأستاذ حمدي إلى فرنسا ليبحث عن آثار نابليون ووثائقه وصوره، ثم عاد ليشرح لهم درس نابليون بونابرت ومعاركه وأثر

حملته في نهضة مصر الحديثة عارضاً الصور "بالفانوس السحري" حتى خيل للطلبة أنهم يعيشون مع نابليون ورجاله وحبيبته "جوزفين"

بالطبع تعليم قوي كهذا لابد وأن يكون خلاقاً ومفيداً للأطفال علاوة على ما يغرسه الأهل في أبنائهم من قيم، فنجد دعوات الوقوف إلى جانب الأطفال الفقراء بعد انقضاء الحرب العالمية الأولى تجد آذاناً صاغية لدى مجموعة من الأطفال أكبرهم تسع سنوات قرروا تحمل المسؤولية وحمل عبء كهذا فشيدوا جمعية "المساعي الخيرية للأطفال" وبحسب الخبر بمجلة اللطائف المصورة في **28** فبراير **1921** تشكلت الجمعية بالفيوم من خمسة أطفال أقباط هم: منير نجيب الرئيس وأنور نجيب عريان السكرتير (نجل نجيب بيك عريان الرئيس الأسبق للجمعية حتى **1936** وحفيد عريان بيك أسعد أول رئيس للجمعية عام **1880**، بحسب صفحة الجمعية القبطية الأرثوذكسية بالفيوم)، وكامل نصيف محروس أمين الصندوق وصبحي ميخائيل عبود وسليم بطرس عبود عضوين وكان الاشتراك في الجمعية بقرشين صاغ وخلف كتيبة الأطفال النبهاء كانت أمهاتهم تعاونهم في طبخ اللحوم وتفصيل الأقمشة وتوفير الصابون والأمشاط للأطفال الفقراء.

ومن ثمرات هذه الدعوات أيضاً والشيء بالشيء يذكر، إقامة سوق خيرية في طنطا لمساعدة اليتامى الذين فقدوا والديهم بالحرب برئاسة "مدام بونزون ومدموزال ديفرانس" بحسب اللطائف المصورة في **29** يناير **1917.**

للأسف وعلى الرغم من فخامة كل هذه المشاهد الفردية من المعلمين والأطفال والمتطوعين، إلا أن أغلب آراء المختصين والمفكرين في مصر في العهد الملكي كانت غير راضية عن مستوى الخريجين من المدارس ومن المستويات التعليمية المختلفة، فمثلاً الأستاذ فكري أباظة يحمل في صفحته (معرض الدنيا) بمجلة الدنيا المصورة في **26**يونيو **1929** مشكلة التعليم إلى انتشار الدروس الخصوصية وأنها بمثابة رشوة مستورة، وأن النجاح الصحيح المبني على العلم والتحصيل لا على اقتناص المدرسين ومنحهم مرتبات الدروس الخصوصية لاجتياز الامتحان والسلام!!

ومن **1929** وما قبلها وما بعدها ظلت مشكلة التعليم بلا حلول جذرية فنجد مثلاً وزير المعارف (سامي مازن بك) يصرح لصحيفة المصري في **20** يوليو **1952** قائلاً: "آسف لأن مستوى التعليم دون ما نأمله" وأن "ذلك المستوى لن يؤدي إلى تحقيق الآمال التي نعلقها عليه" وأنه سيعمل على الاستعانة بقدامى رجال التعليم "لما كسبوه من خبرة ونضوج وما لهم من مرآن طويل" راجياً في نهاية حديثه "عودة شرف وظيفة المدرس القديم"... هل أوفى الوزير بوعوده؟! للأسف لا.. ذلك أنه وبعد مضي يومين من

التصريح استقالت وزارة حسين سري باشا الخامسة ومن بينها سامي مازن بيك، وبعدها شُكلت وزارة برئاسة أحمد نجيب الهلالي، وفيها محمد رفعت باشا وزير للمعارف لتقوم ثورة **1952** بعد ذلك..

أين المشكلة؟!

المشكلة أنك قد تمتلك الموارد البشرية والخبرات العلمية والاستعدادات والمهارات الفردية والجماعية، لكن كل هذا مصيره الإهدار مع غياب الخطة العملية المتكاملة طويلة المدى التي تحقق الاستفادة والرؤى المستدامة وإهمال القياسات والتقييمات، وعدم استقرار الوزارات وكل وزارة تأتي بخطة حزبية مختلفة، قد يكون التعليم على أولوياتها وقد لا يكون!! مما أربك التعليم وأضاع قيمة الجهود الفردية التي تبذل سُدىً.. لذلك فأنا ما زلت عند رأيي أن أعظم تجارب الاستثمار في التعليم وفي الموارد البشرية، كان في عهد الملك فؤاد ومن بعده الرئيس جمال عبد الناصر، وقد ناقشت ذلك في كتابي (مرآة التاريخ) و(صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر).

نعود مرة أخرى إلى العملية التعليمية، ولكن مع اقتراب أكثر من خصائص الطالب المصري ومقوماته في العهود المنصرمة، ولكن هذه المرة من محيط الجامعة وتحديداً كلية الطب.

يقول (آرثر سيسيل ألبورت) في كتابه (ساعة عدل واحدة.. الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية **1937-1943**)، وكأنه يحكي عن واقع الطلاب حالياً: إنّ الطلبةَ المصريين "يعتبرون الامتحانات كأنها هي بداية ونهاية العالم"، ويعلل ذلك بأن الكثير منهم في "فقر مدقع" وبعضهم يجد "صعوبة بالغة في تدبير مصروفات الامتحانات"، ثم يضع يديه على علة العلل وهي أن الشق النظري يأخذ من وقت الطالب أكثر من اهتمامه بالتحصيل العملي، فيقول: "أقسى المتاعب التي تواجه طالب الطب المصري في الامتحانات هي عادة حبس نفسه في منزله ساهراً الليالي المتوالية يقرأ ويعيد ويزيد بدلاً من أن يركز جهده وانتباهه لما يحدث أمام عينيه في الأقسام الخارجية".

لا ينكر آرثر أن إجابات الطلبة المصريين أفضل كثيراً من نظرائهم في إنجلترا وجنوب أفريقيا بشهادة الممتحنين من الدولتين، وأن الطالب المصري يمتاز عن الأوروبي بذاكرة ممتازة، ويدلل على ذلك بقدرة المصري على الحفظ "شفاهة وعن ظهر قلب"، لكنه يرى أن الموهبة تتوقف عند الحفظ دون الاستخدام العملي لها وتطوير المعلومات والبناء عليها، فيقول: "يبدو أن مركز الذاكرة في ذهن الطالب المصري قد نما على حساب قدرته على تحكيم المنطق وكيفية الاستخدام العملي للمعلومة التي استظهرها في ذاكرته العجيبة"، ويضرب مثالاً على ذلك بأنه حينما يسأل الطالب فنظره

يتجه صوب السقف، ثم يعيد السؤال وبعدها يسرد ما اشتملت عليه "صفحة كاملة من مرجع طبي طبعت كلماتها في تلافيف ذاكرته من التكرار المستمر"، لكن شتان بين النظري والعملي، فالطالب في امتحان الطب الأكلينيكي "يعتمد على نفسه وعلى قدرته في الملاحظة والإدراك".

ولكن ماذا ترتب على ذلك في تقييم آرثر؟! يرى آرثر أن هذا الأمر من الصعوبات التي تواجه الأستاذ، فعلى الأستاذ أن يسقي الطلاب العلم بالملعقة ليحصلوا على القدر الأكبر من المعلومات بأقل قدر من الجهد.

يتحدث آرثر عن نقطة ستبهج الطالبات جداً وهي أن "الطالبة المصرية تبدي اهتماماً أكبر بدراسة وتقصي الحالات" أكثر من الطلبة الذين ينتظرون في أماكنهم "متوقعين أن يحضر إليهم المدرس ليسقيهم العلم".

كم أنت قاسٍ يا عزيزي آرثر معنا معشر الرجال!!

يحكي آرثر قصة طريفة أنه ألف كتيّباً يشرح فيه أسلوب تدوين الحالات المرضية والتاريخ المرضي وأنواع التحاليل المعملية الروتينية خاصة الاختبارات الخاصة بالمناطق الحارة؛ لأنه لاحظ قصوراً لدى الطلبة المصريين في هذه المسألة وطلب أن يكون الكتاب بالمجان مراعاة لحالة الطلبة، لكن الجامعة فرضت رسوماً خمسة قروش نظير شراء الكتاب، وأن آرثر نفسه دفعها حينما أراد نسخة من الكتاب قبل مغادرته مصر للاحتفاظ بها!!

يشير آرثر أيضاً إلى الداء المصري العضال وهو الوساطة (الكوسة المصرية) في النجاح والرسوب، فيتحدث عن تدخل الممتحنين المصريين لدى الأجانب لتعديل النتائج ويذكر واقعة "رسوب طالب في امتحان الجراحة العامة في مادة التوليد"، وثورة أستاذ أمراض النساء والولادة بالكلية وإصراره على إنجاح الطالب مهدداً بالاستقالة، ليتضح بعد ذلك أن الطالب ابن أخي الأستاذ!!

ومن الطب إلى الآداب حيث "المحسوبية التي لا حد لها" بحسب وصف حسين أحمد أمين للدكتور طه حسين، وأن هذه المحسوبية كانت سر الشقاق بين طه حسين ووالده أحمد أمين على الرغم من أن الأخير استفاد من محسوبيات طه حسين في سفر ابنه محمد في بعثة دراسية إلى إنجلترا وفي تعيين زوج ابنته عبد العزيز عتيق بالمعهد الثقافي المصري في لندن!!

كما يستنكر آرثر قيام رئيس الجامعة بالظهور في إعلان "صابون فاروق" مشاركاً آخرين "من عليةِ القوم من أساتذة الطب وبعض الوزراء".

سبحان الله نفس ما استنكرته على أمير الشعراء أحمد شوقي في كتابي (صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر) حينما روّج للسجائر ولم يستوعب البعض مقصدي!!

ليسمح لي القارئ مع سيرة صابون النابلسي فاروق أن نطرق معه مرض النفاق المصري.. كان للنابلسي فاروق إعلان طريف تحت عنوان "دنيا مليئة بالرياء وتحته رسم لرجلين يتصافحان يقول أحدهما للآخر: "يا راجل

أنت فين؟ أنا والله في غاية الشوق"، وتحت الرسم "ولكن نابلسي فاروق هو الصديق الذي لا يتغير، "لكن للأسف نابلسي فاروق تغير هو الآخر فمع ثورة **1952** خرج إعلان الصابون وقد شطب على اسم فاروق قائلاً: "في الساعة السادسة مساء يوم **26** يوليو شطب اسم فاروق من تاريخ مصر إلى الأبد بعد أن أيقن الشعب والجيش الباسل بأن فاروق قد تغير فأصبح حرباً على كيان مصر وخطراً على مستقبلها ولذلك نحوه عن ملك مصر ومحوا اسمه من كل مكان، ونابلسي شاهين الذي كان قد قرن اسمه باسم فاروق يسعده اقتداء بالجيش وبدافع من وطنيته أن يقذف باسم فاروق وأن يحمل اسمه من اليوم نابلسي شاهين "صدق من قال: "الناس على دين ملوكهم"!!

ربما يدفعك الفضول عزيزي القارئ إلى التعرف على الأنماط الشخصية للأساتذة الجامعيين في هذه الأزمنة الماضية، وهنا يقربنا آرثر من هذه المعرفة ويرسم لنا صوراً تفصيلية عن قرب لبعض الأساتذة الذين صادفهم بكلية الطب ومنها:

-أستاذ الباثولوجي "المصري" والذي يعتبر مهمة الأستاذ مهمة مقدسة" كان أفضل إنجازاته اكتشاف دواء لعلاج السرطان عبر حقن قليل من بول الإنسان تحت جلد المصاب وهو إنجاز استحق أن يبشر به الملك فؤاد!!

- أستاذ الطب الباطني "الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا"، "الطبيب البارع" و"الحجة في تفسير القرآن"، والمهتم بتنمية ثروته من عيادته

الخاصة والمضاربة في البورصة وهو ما يدر عليه عائداً كبيراً "في يوم واحد" يفوق ما يحصل عليه من الحكومة "في سنة كاملة"، كان لا يهتم بالتدريس ويكره موسم الامتحانات وفي إحدى المرات غادر اللجنة ليكشف على أحد المرضى في عيادته الخاصة.. وفي هذا الموضوع يتحدث آرثر عن إحدى العادات المصرية الطريفة وهي ذبح الثيران في الجنازة ففي جنازة الملك فؤاد ذبح ستة ووزعت على الفقراء، وفي جنازة الدكتور عبد العزيز ذبح ثور ولطخ الكفن بالدم!!

-الدكتور "عزمي سليمان" "الجنتلمان" ذو الأصول التركية والذي حضّر بحثاً قيماً عن إدارة المستشفيات مستفيداً من التجارب الإنجليزية والفرنسية والألمانية فرفضه رئيس الجامعة!!

-الأستاذ المتزوج "من بنت أخت مناضل عربي معروف" ورئيسه المباشر الدكتور نجيب محفوظ والوحيد المنعم عليه بالباشوية من الملك فاروق بمناسبة افتتاح مستشفى فؤاد الأول كان لا يحضر للمستشفى ولا العيادة الخارجية ولا لإلقاء دروسه سوى مرة واحدة كل عدة شهور على الرغم من تلقيه راتبه كاملاً!!

كما يرصد آرثر عزوف المصريين عن التعيين في وظيفة معيدين لتدريس العلوم الطبية البحتة كالفسيولوجي لأنها ليست مجزية لهم.

اهتمام طلاب الطب بمصر بالناحية المادية رصدته مجلة الدكتور **1948** حيث تصدر إحدى أغلفتها رسم كاريكاتري لدرس الجراحة يقول الأستاذ فيه: "فيه حد عايز يسأل سؤال في العملية دي" فيرد طالب " العملية اللي زي دي ناخد فيها كام؟!"

ولو عدنا إلى الوراء مع كتاب محمد عمر "حاضر المصريون أو سر تأخرهم **1902**" نجد أنه لا يوجد طبيب يطيب فقيراً بغير أجرة " إلا حالة واحدة يرصدها وهو "الدكتور دري باشا" الذي كان مستوصفه مجاني للفقراء المنهوكين بالأمراض والعاهات، "ولما توفاه الله انقطع الخير عن الفقراء. نموذج أشبه في عصرنا بالدكتور محمد عبد الغفار مشالي طبيب الغلابة رحمه الله قضى عمره يعالج الفقراء بالمجان، فهل من سائر على هذه الخطى وثوابه على الله.. طبيب يعالج المرضى بالمجان أو بسعر رمزي وصيدلي يتنازل عن هامش ربحه في الدواء ويعطيه للمرضى مجاناً، أو بهامش ربح بسيط؟! ربما يأتي هذا الزمان الذي يرونه بعيداً ونراه بقلوبنا قريباً..

****

السيرة الذاتية للمؤلف

د. محمد فتحي عبد العال

من مواليد الزقازيق محافظة الشرقية بمصر عام **1982**

المؤهلات العلمية:

1-بكالوريوس صيدلة جامعة الزقازيق **2004.**

2-دبلوم الدراسات العليا في الميكروبيولوجيا التطبيقية جامعة الزقازيق **2006 .**

3-ماجستير في الكيمياء الحيوية جامعة الزقازيق **2014.**

4-دبلوم الدراسات العليا في الدراسات الإسلامية من المعهد العالي للدراسات الإسلامية **2017.**

5-شهادة إعداد الدعاة من المركز الثقافي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف **2017.**

6-دبلوم مهني في إدارة الجودة الطبية الشاملة من أكاديمية السادات للعلوم الإدارية **2017.**

محتويات الكتاب



دراسة تاريخية
نوستالجيا الواقع والأوهام
د. محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى
1443 هـ 2022 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com